الإشارة إلى مذهب أهل الحق

للإمام

أبى إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف

الفيروزآبادى

المتوفى ٤٧٦ هـ

تحقيق

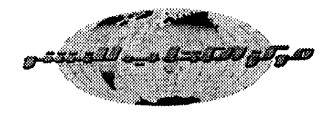
الدكتور

أحمد عبدالرحيم السايح

الدكتور

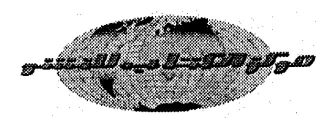
أحمد عبده عوض

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله حمداً طيباً كريماً يليق بجلاله وكماله وعظمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

وبعد ،،،

فلا يجد المرء عجباً أن يكون الفيروزآبادى ذلكم اللغوى المبدع، صاحب التراث العظيم فى اللغة والأدب والبلاغة وتاريخ اللغة؛ هذا الرجل الشافعى المذهب الذى هو من أئمة اللغة والأدب، تكون له هذه الإبداعية فى كتب دينية متعمقة فى فكرها وموضوعاتها ومادتها ، لعل من أهمها (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز) ، (وسفر السعادة فى الحديث والسيرة النبوية).

وهذه السمة فى إنتاج علمائنا العرب (الموسوعية) صارت ديدن مؤلفاتهم التى اتسمت بالثراء والتنوع والقوة ؛ فقدموا للبشرية إنتاجاً علمياً متميزاً وفريداً؛ صنع مجداً فكرياً لا ريب لأمة العرب.

وإنك لتعجب أن هذه المجلدات العظيمة أنجزوها فى مدة وجيزة، وكانت أعمار بعضهم قصيرة زمناً لكنها عظيمة عطاءً وفكراً، فما ضيعوا وقتاً فى رحلاتهم يكتبون، فى مجالسهم يكتب عنهم، ينامون قليلاً ، يفكرون كثيراً، العلم حياتهم وشغلهم وهدفهم وقضيتهم، فسبحان من بارك لهم فى أوقاتهم وأعمارهم، وقيض للدين حفظة عاملين مخلصين، وقيض لهؤلاء الحفظة من حافظوا على كتبهم، وأولوها عنايتهم، وجعلوا نشرها مقصد حياتهم.

وإن الله تعالى قد أغدق على علمائنا بفيض علمه ما لا يحصى فانظر إلى الفيروز آبادى الذى اتسم بقوة الحافظة؛ فيحفظ مائة سطر كل يوم قبل أن ينام لحرى أن يكون موسوعياً فى تنوع اهتماماته.

وإذا تأملت سيرة الفيروزآبادى وعصره فإنك تجد أنه انتقل إلى العراق، وجال فى مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، واشتُهر بعلمه وفضله، وتولى القضاء، وانتشر اسمه فى الآفاق؛ حتى كان مرجع عصره فى اللغة والأدب والتفسير والحديث.

وفى القرن الخامس الهجرى الذى عاش فيه الفيروزآبادى ، والذى عج بالخلافات المذهبية ، والاضطرابات السياسية فى كل بلاد العالم الإسلامى، والتعصب الفكرى الملازم للتوتر السياسى.

وكان الفيروزآبادى مهموماً بالرد على الغلاة الذين يهاجمون أهل السنة ، ويهاجمون الأشاعرة من المعتزلة وغيرهم، ولذا فقد تفرغ للدفاع عن مذهب أهل الحق كما أسماه.

وإنك لتعجب أن الخلافات المذهبية لم تكن تهدأ فى الحقب التاريخية المختلفة، ففى التفاعلات السياسية تظهر آثار فكرية كرد فعل لها. فقد ظهر من الفرق من يسبون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما على المنابر، ولم يكن الفيروزآبادى ليرضى بهذا؛ فحمل قلمه، واستجمع فكره، واستنهض عزيمته فى بيان الحق من هذه الخلافات؛ فجاء كتابه هذا ليس بياناً مفصلاً، وإنما هو كما أسماه (إشارة لمذهب أهل الحق) وهذه الإشارة تلطف من المؤلف رحمه الله فى التسمية، وتواضع منه، محمود له، فالكتاب ليس إشارة فقط، ولكنه سفر عظيم مُفصل جمع بين العلم والحكمة، وأبان الحق، ورد على مخالفيه بأدب وتواضع ورصانة.

وقد تضمن الكتاب مباحث مهمة؛ عظيمة القيمة، ثرية المادة، مدعمة بالأدلة، فضلاً عن حسن العرض، ومناقشة الموضوعات بموسوعية، ومنطق، ورؤية واسعة. والذى يغوص مع الفيروزآبادى يعود بعظيم اللآلئ ، وكريم الدرر، فبماذا نعود من رحلتنا معه؟!

أفاض الشيخ رحمه الله فى الحديث عن صفات الله عز وجل وأن الله تعالى قديم أزلى، ليس بجسم، ثم يرد على القدرية ويذم اعتقادهم فى كلام الله تعالى؛ الذى يراه الفيروز آبادى أزلياً قديماً ليس محدثاً ولا مخلوقاً.

ثم يتحدث رحمه الله عن الاستواء على العرش لله تعالى، ونفى التشبيه عنه سبحانه وتعالى، ويسوق أدلة عقلية ونقلية على ذلك.

ويفرق المؤلف بعد ذلك بين رؤية موسى والرسول الكريم عليهما الصلاة والسلام لله عز وجل، وذلك فى بيان مسهب معضد بالأدلة.

وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى عدة قضايا مهمة؛ فتحدث عن فضل الخلفاء الراشدين ، مع توجيه عناية خاصة إلى الصديق رضي الله عنه ، والإمام على رضي الله عنه ثم يرد على من يسب الصحابة ، أو اتهمهم بالكفر.

ثم أشار إلى غربة الإسلام ، وبعض علامات الساعة.

وتحول رحمه الله إلى الحديث عن الأشاعرة ويسوق أدلة نقلية على فضلهم، ثم يبرز فضل الإمام الشافعى ومذهبه فى الفقه، ونختم ذلك بقوله: «فمن كان فى الفروع على مذهب الشافعى، وفى الأصول على اعتقاد الأشعرى فهو معلم الطريق، وهو على الحق المبين».

ونرجو الله تعالى أن ينفع بهذه المخطوطة الفريدة وأن تكون فى ميزان حسناتنا يوم القيامة اللهم علمنا علماً ينفعنا ، وانفعنا اللهم بما علمتنا.

المحققان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال الشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الفيروزآبادى -رحمه الله - أما بعد.

فإنى لما رأيت قوماً ينتحلون العلم[1]، ويُنسبُون إليه . وهم من جهلهم لايدرون ما هم عليه . يَنْسبُون إلى أهل الحق ما لا يعتقدونه. لينفروا قلوب العامة من الميل إليهم، ويأمرونهم أبداً بتكفيرهم، ولعنهم. أحببت أن أشير إلى بطلان ما ينسب إليهم . بما أذكره من اعتقادهم، وأنا مع ذلك مكره ؛ لا بطل، ولى دعوى لا عمل.

ولكن شرعت فيما شرعت . مع اعترافى بالتقصير، وعلمى بأن ناصر الحق كثير . ليرجع الناظر فيما جمعته عن قبول قول المضلين ، ويدين الله عز وجل بقول الموحدين المحققين.

فقد روى عن النبىﷺ أنه قال:« **إذا لعن آخر هذه الأمة أولها. فمن كان عنده علم فليظهره . فإن كاتم العلم ككاتم ما أنزل الله عز وجل على محمد**».

ومقصدى بذلك النصيحة . فلن يكمل المؤمن إيمانه حتى يرضى لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه.

ويروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: « **من كتم أخاه نصيحة أوعلماً يطلبه منه لينتفع به أحرمه الله فضل ما يرجو**».

نسأل الله أن لا يحرمنا رحمته ، وأن يدخلنا جنته.

(١) ينتحلون العلم : أى يزعمون أنهم من أهل العلم فى الوقت الذى يحتقرون فيه العلم ويبدعون ويكفرون من يرون لجهلهم وتعصبهم.

النظر والاستدلال

فمن ذلك أنهم يعتقدون أن أول ما يجب على العاقل ، البالغ، المكلف: القصد إلى النظر ، والاستدلال. المؤديان إلى معرفة الله عز وجل. لأن الله عز وجل أمرنا بالعبادة . فقال عز وجل ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[البينة :٥] .

والعبادة لا تصح إلا بالنية . لقوله عليه الصلاة والسلام:

«**إنما الأعمال بالنيات** . »[1] [متفق عليه].

والنية هى القصد . تقول العرب : **نواكَ الله بحفظه . أى قصدك الله بحفظه**. وقصد من لا يعرف محال. فدل على وجوب النظر والاستدلال.

ولأن ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به يكون واجباً كالواجب. ألا ترى أن الصلاة لما كانت واجبة. ثم لا يتوصل إليها إلا بالطهارة . صارت الطهارة واجبة كالواجب.

فكذلك أيضاً فى مسألتنا . لأنه إذا كانت معرفة الرب عز وجل واجبة. ثم بالتقليد لا يتوصل إليها . دل على وجوب النظر والاستدلال . المؤديين إلى ذلك.

فقد أمرنا الله عز وجل بذلك، ودعا إليه . فقال عز وجل :﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[يونس:١٠١] .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾[الواقعة :٥٨، ٥٩] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة :٦٨، ٦٩]

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية :١٧، ١٨]

(١) رواه الشيخان البخارى ومسلم رحمهما الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقال عز وجل إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦].

وأمرنا باتباعه فقال عز وجل:

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[الحج: ٧٨].

فمن أنكر النظر والاستدلال. لا يخلو إما أن ينكر بدليل. أو بغير دليل. أو بالتقليد.

فإن أنكره بغير دليل لا يقبل منه.

وإن أنكره بالتقليد. فليس تقليد من قلده بأولى من تقليدنا.

وأن أنكره بدليل. فهو النظر والاستدلال الذى أنكره.

والنظر لا يزول بالمنكر. فبطل دعواه، وثبت ما قلناه.

التقليد فى معرفة الله

ثم يعتقدون أن التقليد فى معرفة الله – عز وجل – لا يجوز ، لأن التقليد قبول قول الغير من غير حجة.

وقد ذمه الله تعالى . . فقال عز وجل: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٤].

لما قالوا :

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولأن المقتدين تتساوى أقوالهم . . فليس بعضهم بأولى من بعض.

ولا فرق بين المبنى والمبتنى فى ذلك.

وإذا كان الأنبياء مع جلالة قدرهم ، وعلو منزلتهم . . لم يدعو الناس إلى تقليدهم من غير إظهار دليل، ولا معجز . .

فمن نزلت درجته عن درجتهم أولى، وأحرى . . أن لا يتبع فيما يدعو إليه من غير دليل.

فعلى هذا : لا يجوز تقليد العالم للعالم، ولا تقليد العامى للعامى ، ولا تقليد العامى للعالم، ولا تقليد العالم للعامى . . فى الفروع؟

فإن قيل . . لِمَ جوزتم تقليد العامى للعالم . . ولِمَ لا تجيزوها فى الأصول؟؟

قيل : لأن الفروع التى هى العادات . . دليلها السمع، وقد يصل إلى العالم من السمع ما لا يصل إلى العامى.

فلما لم يتساويا فى معرفة الدليل . . جاز له تقليده.

وليس كذلك الأصل الذى هو معرفة الرب – عز وجل – فإن دليله العقل.

والعامى والعالم فى ذلك سواء . . فإن العالم إذا قال للعامى : واحد أكثر من اثنين . لا يقبل منه من غير دليل.

فإن الفرق بينهما ظاهر.

حدوث العالم

ثم يعتقدون : أن لهذا العالم صانعاً صنعه ، ومحدثاً أحدثه ، وموجوداً أوجده من العدم إلى الوجود. لأنه حال وجوده وهو شىء موجود، موصوف بالحياة، والسمع ، والبصر. . لا يقدر أن يحدث فى ذاته شيئاً.

ففى حال عدمه . . وهو ليس بشىء أولى وأحرى لأن يوجد نفسه.

ولأنه لو كان موجداً لنفسه لم يكن وجوده اليوم بأولى من وجوده غداً، ولا وجوده غداً بأولى من وجوده اليوم، ولا كونه أبيض بأولى من كونه أسود.

فدل على أن له مخصصاً يخصصه، وموجوداً يوجده ، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[الروم:٢٢]

ثم يعتقدون : أن محدث العالم هو الله عز وجل، وأنه واحد أحد. . لأن الاثنين لا يجرى أمرهما على النظام . . لأنهما إذا أرادا شيئاً لا يخلو.

إما أن يتم مرادهما جميعاً. . أولا يتم مراد أحدهما دون الآخر. . فإن لم يتم مرادهما جميعاً. . بطل أن يكونا إلهين . . ومحال أن يتم مرادهما جميعاً[1].

(١) المعنى الذى قصده الشيخ رحمه الله مأخوذ من قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١].

لأنه يريد أحدهما إحياء جسم ، الآخر يريد إماتته.. والإنسان لا يكون حياً ميتاً فى حالة واحدة.

وإن تواطأ.. فالتواطىء أيضاً.. لا يكون إلا عند عجز.. وإن تم مراد أحدهما دون الآخر ، فالذى لم يتم مراده ليس بإله، لأن من شرط الإله.. أن يكون مريداً ، وقادراً. فدل على أن الله عز وجل واحد أحد.

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال عز وجل :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء: ٢٢].

الله قديم أزلى

ثم يعتقدون : أن الله عز وجل قديم أزلى أبداً .. كان وأبداً يكون. لأنه لو كان محدثاً لافتقر إلى محدث آخر .. وذلك المحدث إن كان محدثا افتقر إلى محدث آخر. ويؤدى ذلك إلى التسلسل وعدم التناهى، وذلك محال.

ثم يعتقدون : أن الله عز وجل لا يشبهه شىء من المخلوقات ولا يشبه شيئاً منها، لأنه لو أشبهه شىء لكان مثله قديماً، ولو أشبه شيئاً لكان مثله مخلوقاً، وكلا الحالين محال. قال الله عز وجل:﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١].

إن الله ليس بجسم

ثم يعتقدون : أن الله عز وجل ليس بجسم .. لأن الجسم هو المؤلف، وكل مؤلف لا بد له من مُؤلِف.

وليس بجوهر .. لأن الجوهر لا يخلو من الأعراض كاللون، والحركة، والسكون، والعرض الذى لا يكون ثم يكون، ولا يبقى وقتين.. قال الله تعالى:﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[الأحقاف:٢٤]، أى لم يكن فكان.

وما لم يكن فكان . . فهو محدث. وما لا ينفك من المحدَث . . فهو محدَث كالمحدَث.

ثم يعتقدون : أن الله تعالى المحدِث للعالم. . موصوف بصفات ذاتية، وصفات فعلية.

فأما الصفات الذاتية فهى ما يصح أن يوصف بها فى الأزل، ولا يزال. كالعلم ، والقدرة.

وأما الصفات الفعلية، فهى ما لايصح أن يوصف بها فى الأزل فى لايزال. كالخلق ، والرزق.

لايقال : أنه أبداً كان خالقاً ورازقاً . . لأن ذلك يؤدى إلى قدم المخلوق، والمرزوق. . بل يقال: إنه أبداً كان قادراً على الخلق، والرزق. . عالماً بمن يخلقه.

فإن قيل: إنه أبداً الخالق، والرازق، بالألف واللام - جاز.

ثم يعتقدون : أن الله تعالى عالم بعلم واحد، قديم، أزلى. يتعلق بجميع المخلوقات. . فلا يخرج مخلوق عن علمه. . لأنه لو لم يكن موصوفاً بالعلم. . لكان موصوفاً بضده . . وهو الجهل . . ثم يكون الجهل صفة له قديمة، والقديم يستحيل عدمه ، فلا يكون أبداً عالماً، وذلك نقص، والرب عز وجل موصوف بصفات الكمال ، لا بصفات النقص. قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٨١]. وقال تعالى: ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾[النساء:١٦٦]

ثم يعتقدون : أن الله عز وجل. قادر بقدرة واحدة، قديمة أزلية. . تتعلق بجميع المقدورات . فلا يخرج مقدور عن مقدوراته.

لأن ضد القدرة العجز . . فلو لم يكن فى الأزل موصوفاً بالقدرة لكان موصوفاً بضدها . . وهو العجز . . ثم يكون العجز صفة له قديمة والقديم يستحيل لعدمه - كما ذكرنا - فى العلم . . فلا يكون أبداً قادراً ، وذلك آفة.

والرب - عز وجل - منزه عن الأفات قال الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٨٤]، [وآل عمران:٢٩، ١٨٩]، [المائدة: ١٧، ١٩، ٤٠]، [الأنفال: ٤١]، [التوبة: ٣٩]، [الروم:٥٠]، [والحشر: ٦].

والكلام فى إثبات جميع صفاته الذاتية كالكلام - فيما ذكرناه - من إثبات العلم ، والقدرة.

ثم يعتقدون : أن الله -عز وجل - مريد . . بإرادته قديمة أزلية . . فجميع ما يجرى فى العالم من خير أو شر ، أو نفع وضُرٌّ، أو سقم وصحة، أو طاعة أو معصية . . فبإرادته ، وقضائه . . لاستحالة أن يجرى فى ملكه ما لم يرده. . لأن ذلك يؤدى إلى نقصه ، وعجزه. قال الله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج:١٦] ، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[الأنعام: ١٢٥].

والكلام فى هذه المسألة مع القدرية يطول. لأنهم لا يثبتونها على أصلهم. وهو أن العقل عندهم يوجب، ويحسن، ويقبح.

وعند أهل الحق: لا يوجب، ولا يحسن، ولا يقبح. بل الحسن ما حسنته الشريعة، والقبيح ما قبحته الشريعة . قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء:١٥] . فأخبر تعالى: أنهم آمنون من العذاب، قبل بعث الرسول إليهم. فالواجب فعله ما لا يؤمن منَ فى تركه.

فعلم بهذه الآية . . أن الله تعالى لم يوجب على العقل شيئاً من جهة العقل، بل أوجب ذلك عند مجيء الرسل من قبل الله تعالى. ولأن العقل صفة للعاقل. وهو محدَثٌ مخلوق لله - تبارك وتعالى - وليس بقائم بنفسه، ولا حيٍّ ولا قادر، ولا عالم، ولا متكلم. . وما هذه حالته فلا يصح أن يوجب على العقلاء، ولا على غيرهم شيئاً ، ولا أن يحرم شيئاً، ولا أن يقبح شيئاً، ولا يعلم به غير المعلومات التى لا تتعلق به. . كجميع العلوم.

إذا كان الأمر كذلك، لم تصر الأفعال حسنةً واجبةً بإيجابه ولا محرمة قبيحة بتحريمه، ولا مباحة . . كسائر الحوادث. . لأنه محدث مخلوق. كسائر العلوم، والحوادث.

ولو وجب عليهم شيء من جهة العقل. قبل مجيء الرسل . فكان حجة عليهم مجردة من ذلك. . لما قال: ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾[**النساء**: ١٦٥].

بل كان الواجب أن يقول: لئلا يكون الله حجة بعد العقل. ولما بطل ذلك دلَّ على أن العقل ليس له تأثير فى شيء - مما ذكرناه - فإن قيل : لما قلتم: إن الله عز وجل - مريد للمعاصى، خالق لها ، فبأى شيء يستحق العبد العقوبة.

يقال لهم : هل تثبتون أن الله - عز وجل - مريد للطاعة ، خالق لها أم لا؟

فإن قيل: ليس بمريد لها، ولا خالق أيضاً. فلا كلام معهم. والأولى السكوت عنهم. لأنهم قد كذَّبوا الرب فى خبره وقال - عز وجل - ﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[**الرعد**:١٦].

وإن قيل : إنه مريد لإيجادها ، وخالق لها.

يقال : فالعبد . . بأى شيء ينال الثواب، والدرجات؟ وكل دليل لهم هنا. . هو دليل لنا هناك.

فكما أنه يُقْدِّرُنَا على فعل الطاعة، ويخلقها لنا، ثم يثيبنا عليها بفضله. فكذلك أيضاً يقدرنا على المصيبة[1]، ويخلقها لنا. ثم يعاقبنا عليها بَعدْله . . لأنه متصرف فى ملكه على الإطلاق.

(١) المصيبة هنا يراد بها المعاصى ، والله تعالى أعلم.

وقد روى فى الخبر : أن الله - عز وجل - أوحى إلى أيوب : لو لم أخلق لك تحت كل شعرة صبراً . . لما صبرت.

ثم بعد ذلك يمدحه ، ويثنى عليه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:٤٤]

فإذا كان الرب - عز وجل - خلق الصبر له . فبأى شيء نال هذا المدح والثناء.

فدل على أن الأمر - ما ذكرناه - لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون[1].

فإن قيل : وجدنا أحدنا إذا قال لغلامه : اكسر هذا الإناء . فكسره. ثم عاقبه. يكون ظالماً.

فإذا قلنا : إن الله - عز وجل - مريد للمعاصى . . ثم يعاقب عليها. يكون ظالماً.

يقال : حقيقة الظلم هو تجاوز الحد . . فالسيد إذا قال لغلامه: اكسر هذا الإناء وعاقبه يكون ظالماً، لأن فوقه أمراً، وهو الله - عز وجل - أمره أن لايتجاوز مع عبده الحد، فإذا تجاوزه يكون ظالماً.

ثم يقال لهم : هذا السيد أمر عبده بكسر الإناء. . فكانت عقوبته ظلماً له، والرب عز وجل لم يأمر بالمعاصى . قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨]

بل يقول: إنه مريد للمعاصى. والأمر بخلاف الإرادة. . ونحن مخاطبون بالأمر. . لا بالإرادة.

فإن قيل : الأمر والإرادة سواء. . فما أمر به فقد أراده، وما أراده فقد أمر به.

---

(١) هذا المعنى مقتبس من قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣].

قيل: هذا ليس بصحيح.. والدليل عليه إذا قال رجل لغيره: إن غلامى هذا لا يطيعنى فيما آمره به، ولا ينصحنى.

ثم قال لغلامه : افعل كيت، وكيت.. فقد أمره بالفعل، وهو يريد أن لايفعل .. ليبين لذلك الرجل صدق قوله.

فدل على أن الأمر بخلاف الإرادة.

أمر إبليس بالسجود، ولم يرد منه السجود.. ولو أراد أن يسجد لسجد على رغم أنفه.

ونهى آدم عن أكل الشجرة، وأراده أن يأكل منها.

وعندهم أن الله - عز وجل - أراد إبليس أن يسجد، وأبليس ما أراد أن يسجد.. يكون على قولهم : إبليس وصل إلى مراده، والرب - عز وجل - ما وصل إلى مراده.

ثم يقال لهم : هل الرب - عز وجل - قادر على أن يحيل بين هذا العاصى وبين المعصية أم لا؟

وهل هو عالم بأنه إذا رزقه رزقاً يتوصل به إلى المعصية أم لا؟

فإن قيل : ليس بقادر، ولا عالم.. فقد عطلوا، وأبطلوا، ونفوا القدرة، والعلم، وهو أصل مذهبهم.

وينتقل الكلام معهم إلى إثبات الصفات.

وإن قيل إنه : عالم وقادر.

قيل لهم : لو لم يكن مريداً للمعصية من العاصى، مع كونه عالماً بأنه سيعصى ، وقادر أن يحيل بينه وبينها ، لما وجدت.

وإذا ثبت بأنه عالم بما يكون من العاصى قبل المعصية، وقادر أن يحيل بينه وبينها ثم يتركه على المعصية .. فلا يوصف بالظلم عند عقوبته.

فكذلك أيضاً : يريد المعصية ثم يعاقب عليها، ولا يوصف بالظلم.

ولو لم يكن مريداً للمعصية مع وجودها. لكان عاجزاً . . لأن من يجرى فى ملكه ما لم يرد. . لا يكون إلا عاجزاً مغلوباً.

ولهذا قال بعض أصحابنا القدريَّة . . أرادت أن تعدل البارى فعجزته، والمشبهة أرادت أن تثبت البارى فشبهته وهذا خلاف النص والإجماع. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[الإنسان: ٣٠].

وأجمعت الأمة على قول : ما شاء الله كان. وما لم يشأ لم يكن ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[الرعد: ٢٧].

﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[إبراهيم:٢٧].

فأضاف الإضلال إليه.

وقال عز وجل: إخباراً عن نوح :﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾[هود:٣٤].

فأضاف الغواية إليه.

وقال إخباراً عن موسى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ ﴾[الأعراف: ١٥٥].

وقال عز وجل: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥].

فأضاف الخير والشر إليه.

وقال عز وجل إخباراً عن إبليس : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾[الحجر:٣٩].

فلو كانت إضافة ذلك إلى الرب عز وجل. لا يجوز لذم الله عز وجل على ذلك كما ذمه، ولعنه . . عند امتناعه عن السجود.

وقد حكى . . عن بعض أصحابنا أنه قال: إن قوماً إبليس أفقه منهم. . السكوت عنهم أولى من الكلام معهم.

فإن قيل : قال الله عز وجل :﴿ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾[الزمر:٧].

قيل لهم : أراد به لا يرضى لعباده المؤمنين دون الكافرين.

فإن قيل : قد قال الله إخباراً عن موسى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥]

قيل أراد به هذا مما يعمل الشيطان مثله ولم يرد به الشيطان هذا مما يخلق الشيطان بدليل قوله : ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾[الأعراف: ١٥٥].

والفرق بينما نورده من الآيات وبين ما يوردونه إنما نورد غير محتمل للتأويل، وما يوردونه محتمل لذلك.

ثم يقال لهم جميع أفعال الخلق إعراض، فلو كان للمخلوق قدرة على خلق بعضها لكان له قدرة على خلق جميعها.

ثم لا فرق بين خلق الأعراض وبين خلق الأجسام فإن الأعراض الذى لايكون ثم يكون، ويفتقر إلى محدثٍ يحدثه ويوجدها ، والأجسام كذلك أيضاً.

فلو كان للمخلوق قدرة على خلق الإعراض، لكان له قدرة على خلق الأجسام.

فمن وصف المخلوقين بالقدرة على خلق بعض المخلوقات، فقد وصفهم بالقدرة على خلق جميعها، وهذا يؤدّى إلى إثبات خالق غير الله تعالى؛ قال الله تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[فاطر: ٣].

وهذا القول من القدرية أعظم من قول اليهود والنصارى، لأن اليهود أثبتت مع الله عز وجل العُزير ، والنصارى المسيح ، والقدرية أثبتت مع الله خالقين لا يحصى عددهم بقولهم : إن العبد يخلق ويريد ، والرب يخلق ويريد، وقد شبههم النبى ﷺ بالمجوس بقوله: «**القدرية مجوس هذه الأمة**»[1].

فإن قيل : أنتم القدرية لأنكم تقولون الرب عز وجل يقدر على خلق المعاصى، يقال لهم : هذا لا يصّحُ، لأن من وصف غيره بالحياكة لا يصير حايكاً ، بل الحايك من فعل الحياكة.

فقولنا : إن الله عز وجل يقدر ، لا نُسَمى القدرية، بل القدرية الذين يصفون أنفسهم بالقدرة، وقد شبههم النبى ﷺ بالمجوس.

ولأن المجوس يقولون بإلهين النار ونور، والقدرية يقولون بخالقين، لأن العبد عندهم يخلُقُ والرب يخلُقُ فلهذا شببهم بالمجوس.

وقد حكى أن بعض أهل التوحيد تناظر مع قدرىٍّ ، وكانا بقرب شجرة، فأخذ القدرى ورقة من الشجرة وقال: أنا فعلت هذا وخلقته. فقال له الموحد: إن كان الأمر كما ذكرت فرده كما كان، فإن من قدر على شىء قدر على ضده، فانقطع فى يده.

وقد ذكرنا أن الكلام معهم فى هذا يطول، ولم يكن غرضى بما ذكرت الرد على المخالف لاعترافى بالتقصير، بل كان غرضى أن أشير إلى مذهب أهل الحق لأُبيّن ما هم عليه من التوحيد وأتباع السنة؛ وأرجو أن يكون قد حصل المقصود إن شاء الله تعالى ، ثم يعتقدون أن الله عز وجل يسمع بسمع قديم أزلىٍّ، ويبصر ببصر قديم أزلىٍّ.

---

(١) رواه ابن ماجه ولفظه « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله» ، ورواه أبو داود ولفظه : «ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر » ورواه أحمد بن حنبل ، ولفظه « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتى الذين يقولون لا قدر ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

أبداً كان موصوفاً بهما وأبداً يكون لأنَّ عدمهما يوجبُ إثبات ضدَّيهما ، وهما الصم والعمى، وذلك آفة.

قال الله عز وجل :﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١] وقال عز وجل: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه: ٤٦]. ثم يعتقدون أن الله عز وجل متكلم بكلام قديم أزليٍّ أبديٍّ غير مخلوق ولا محدث ولا مُفتَرٍ ولا مبتدع ولا مخترع، بل أبداً كان متكلماً به وأبداً يكون لاستحالةِ ضد الكلام من الخرس والسكوت عليه.

قضية خلق القرآن

قال الله عز وجل ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤].

وقال عز وجل ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]

وقال عز وجل ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[التوبة: ٦].

فأثبت لنفسه الكلام بهذه الآيات فإذا ثبت أنه متكلم فكلامه قديم أزلي، والدليل قوله عز وجل : ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣]

فلو كان مخلوقاً لقال الرحمن خلق القرآن وخلق الإنسان، فلما لمّ يقل ذلك فدل على أن الإنسان مخلوق والقرآن ليس بمخلوقٍ، ويدل على قوله عز وجل ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤].

بالواو والأمر كلام الله ، فلو كان مخلوقاً لقال ألا له الخلق والخلق. ويكون تكراراً من الكلام، فلما فصل بينهما بالواو دلّ على أن الخلق مخلوق والأمر كلام وكلامٌ قديمٌ أزلي.

قال الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]

فلو كان قوله كن مخلوقاً لافتقر إلى قول قبله ، وكذلك ما قبله، ويؤدى ذلك إلى التسلل وعدم التناهى، ويؤدى ذلك إلى عدم المخلوقات.

ولأن الرب عز وجل لا يخلق الخلق بالخلق وإنما خلقه بصفته القديمة، وهى قوله كن فدل على ما قلناه.

فإن قيل : كن كاف ونون، ودليل الحدوث فيهما بيّن لكونهما أحرفاً، فإن الأحرف لا تخرج إلا من مخارج.

فالميم مخرجها من الشفتين وانطباق عضوٍ على عضوٍ، والحاء مخرجها من الحلق، وكذلك سائر الحروف.

فإذا كانت الحروف لا تخرج إلا من مخارج والربّ عز وجل منزهٌ عن ذلك لأنَّه ليس ذا ألفاظ ومخارج يتقدم بعضها على بعض فإنه فى حال ما يتكلم بالكاف والنون مَعْدومة وفى حال ما يوجد النون ويتكلم بها الكاف معدومة.

وما هذه صفته لا يكون إلا مخلوقاً ولأن هذه الكاف والنون نشاهدهما فى مصاحفنا أجساماً مخلوقة.

فتارة تكون بالحبر وتارة تكون باللازورد ، وتارة تنقش بالجص والأجر على المساجد وغيرها.

فإذ قلنا بقدمها نحن لا نشاهد إلا هذه الأجسام ، والألوان المخلوقة ، فقد قلنا بقدم العالم، ولأن القديم لا يحل فى المحدث، لأن القول بهذه يؤدى إلى القول بما يعتقدونه النصارى؛ لأنهم يقولون إن كلمة الله القديمة حلت فى عيسى فصار عيسى قديماً أزلياً، بل يكون هذا القائل أعظم قولاً من النصارى لأنهم لم يقولوا بقدم عيسى.

والقائل بأن الكاف والنون قديمة يقول بقدم أكثر المخلوقات، وإذا ثبت أن هذا الكاف والنون وجميع الحروف مخلوقة بمشاهدتنا لها فى دار الدنيا لأنها لو كانت قديمة لما فارقت الموصوف لأن الصفة لا تفارق الموصوف لأنها إذا فارقته يكون موصوفاً بضدها.

بطل ما ادعيتموه من القدم يقال لهم : إنما يصح لكم التعليق بهذا مع المشبهة الحلولية القائلين بقدم هذه الأحرف والأصوات لأنهم يوافقونكم فى المعنى، ويقولون إن كلام الله أحرف وأصوات ، ثم يوافقونا فى التسمية؛ ويقولون بقدم القرآن، والمعول على الاعتقاد بالقلب لا على التسمية باللسان.

ويحملهم على ذلك الجميل بالفرق بين القديم والمحدث ثم يقولون جهلهم بالبهت على الخطأ.

وقال بعض الأدباء أهتك الناس ستراً من إذا لزمه الحق ثقل عليه ، وإذا سنح له الباطل أسرع إليه[1].

والأولى من تكلم معهم من أهل الحق فى ذلك أن لا يطالبهم فى الابتداء إلا بالفرق بين القديم والمحدث.

فمن كان جاهلاً بذلك فالسكوت عنه أولى من كلامه، ويؤمر بمعرفة ذلك فإن أصل هذا الملة مبنى على ذلك.

وأما نحن فلا نوافقهم بأن كلام الله أحرف وأصوات، لأن الأحرف والأصوات لغتنا وصفتنا ومنسوبة إلينا، نقرأ بها كلام الله تعالى ونفهمه بها.

والكاف والنون وجميع الحروف القراءة والمقروء والمفهوم بها كلام الله تعالى أفهمنا بها كلام الله القديم الأزلى، كما أفهم موسى بالعبرانية وعيسى بالسريانية ، وداود باليونانية.

ولا يقال إن كلام الله عز وجل لغات مختلفة ، لأن اللغات صفات المخلوقين.

بل المفهوم من هذه اللغات كلام الله القديم الأزلى، كما أن العرب يسمونه الله وغيرهم من العجم والترك خداى ، وأبود، وتنكرى.

---

(١) سنح : سُنوحاً : عَرَض . يقال: سنح لى رأى فى كذا.

ولا يقال إن هذا الاختلاف عائد إلى الرب لأنه واحد لا خلاف فيه، فكذلك كلامه أيضاً.

بل الاختلاف عائد إلى أفهامنا ولغاتنا، فمن قال بقدم هذه اللغات فلجهله وقمعه لأن المتكلم فى حال ما تكلم بالعربية والعبرانية معدومة، وكذلك السريانية واليونانية.

وما يوجد ويعدم لا يكون قديماً فإن قيل: إذا قلتم إن كلام الله ليس بصوت ولا حرف، ولا تدرك أسماعنا إلا بهذه صفته فمن ينفى كيف سمع، وكيف يسمع؟!

يقال لهم : سماعنا لكلامه كعلمنا به ، فكما أننا نعلم موجوداً إلا جسماً أو جوهراً أو عرضاً؛ ثم إن الله عز وجل معلوم لنا بخلاف ذلك، فكذلك أيضاً سماعنا لكلامه خلاف سماعنا لكلام المخلوقين.

فنقيس سماعنا لكلامه على العلم به مع القدرية، وأما المشبهة فنقيس معهم سماعنا لكلامه على رؤيتنا له؛ لأنهم يوافقونا فى الرؤية بخلاف القدرية.

فيقال لهم : كما أن الله عز وجل يرى لنا غداً وليس يرى جسم ولامحدود خلاف جميع المرئيات التى نشاهدها اليوم.

فخلق الرب عز وجل لنا بصراً نبصر به ، فكذلك خلق لنا سمعاً نسمع به كلامه على ما هو عليه بخلاف المسموعات التى ندركها اليوم.

والدليل على ما نذكره أن الرب عز وجل يخلق لنا سمعاً نسمع به كلامه وبصراً نبصره به بخلاف ما نبصره اليوم ونسمعه.

إن النبى ﷺ كان ينزل عليه جبريل عليه السلام والصحابة جلوس فيراه النبى ﷺ ويسمع منه والصحابة لا يبصرونه ولا يسمعون منه وبصره وبصرهم فى الصورة سواء[1].

---

(١) تعددت الصور التى كان ينزل بها الوحى على الرسول الكريم ﷺ ، والصورة التى ذكرها الشيخ رحمه الله هى الصورة الأولى، وهى ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه، أو يراه أصحابه ﷺ.

وكذلك ملك الموت أيضاً، فإن الميت يشاهده عند قبضه لروحه، وأهله حضور لا يشاهدونه[1].

وكذلك الجن يروننا ولا نراهم[2]، فدل على أن العلة فى ذلك أن الله عز وجل يخلق للبصير بصراً يدرك به ما لم يدركه غيره، فلذلك يخلق له سمعاً يسمع به كلامه وفهماً يفهمه به.

كما أفهم سليمان منطق الطير وخصه بذلك وسمعنا وسمعه فى الصورة سواء.

فإن قيل أنتم تثبتون شيئين مختلفين قراءة ومقروءاً ، أحدهما قديم والآخر محدث ونحن لا نعقل الأشياء واحداً، وفى هذا شبهة القدرية والمشبهة.

فالقدرية يقولون : نحن لا نعقل إلا هذه القراءة وهى محدثة؛ والمشبهة يقولون: نحن لا نعقل إلا هذه القراءة وهى محدثة القرآن ثم يثبتون قدمهما.

يقال لهم : لا يمنع الإنسان فى حالة السماع فيسمع الشيئين المختلفين شيئاً واحداً، ثم بالدليل يفرق بينهما.

كالناظر إلى السواد والأسود، فإنه فى حال المشاهدة لا يشاهد إلا شيئاً واحداً، ثم بالدليل يفرق بينهما، فيعلم أن السواد عرض لا يقوم بنفسه، والأسود الموصوف بذلك السواد حسم بخلافه.

فكذلك فى ملتنا أيضاً ، ونحن قد ثبت عندنا أن كلام الله تعالى قديم أزلى بالأدلة التى قد ذكرنا بعضها.

والقديم أبداً ما كان موجوداً ويكون أبداً موجوداً ، ولا يوصف تارة بالوجود وتارة بالرد ولا يضاف إلى المخلوقين.

---

(١) هذا المعنى موجود فى قوله تعالى ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة: ٨٣-٨٥].

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى عن نسل إبليس ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧].

ثم وجدنا القراءة بخلاف ذلك ففرقنا بينهما؛ وكما أن الذكر عن المذكور والعلم عن المعلوم؛ فإن أحدنا إذا ذكر الله عز وجل لا يقال إن ذكره قديم لقدم المذكور ولا علمه قديم لقدم المعلوم بل هما شيئان مختلفان.

فالذكر مخلوق لأن صفة المخلوق لم توجد قبله، وعلم أيضاً بالله عز وجل لذلك فإن الصفة لا تتقدم على الموصوف فكذلك أيضاً قراءتنا وكتابتنا مخلوقة لأنهما صفتان لم تتقدم علينا فمن زعم من المشبهة الحلولية أن الكتابة قديمة موجودة قبل الكاتب، والقراءة قديمة موجودة قبل القارئ يقال له: فعلى، ماذا يستحق القارئ العقوبة إن كان جُنباً وينال الثواب إن كان طاهراً وهو لم يأت بشيء؟

فدل على أن الذى يأتى به ويستحق عليه ما ذكرنا هو القرآن المأمور بها عند الطهارة، قال الله تعالى ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾[المزمل: ٢٠].

والمنهى عنه عند النجاسة لما روى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: « **لا يقرأ الجنب ولا الحايض شيئاً من القرآن**»[1].

والقديم لا يكون تارة طاعة وتارة معصية، لأن الطاعة والمعصية هى ما يكون للمخلوق على فعلها قدرة، والصفة القديمة الذاتية لا يوصف بأنها مقدورة للَّه عز وجل، فأولى وأحرى أن لا تكون مقدورة للمخلوق.

وقد أخبر الرب عز وجل أن ما بين السماء والأرض مخلوق، فقال عز وجل: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾[الفرقان: ٥٩].

وهذه الكتابة نشاهدها بين السماء والأرض، فمن قال بقدمها كذب الرب عز وجل فى خبره؛ ولأن الرب عز وجل أخبر أن كلامه لا ينفد ولا يفنى فقال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ** ﴾[لقمان: ٢٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن نافع عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

فأخبر أن كلامه لا يفنى ولا ينفد ولا يكون له أول ولا آخر، ثم نجد هذه القراءة تفنى وتنفد، ولها أول وآخر.

والكتابة فى المصاحف كذلك أيضاً، ولقد حكى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أحرق جميع المصاحف المخالفة لمصحفه، أترى أنه أحرق القرآن؟![1].

كلام الله قديم أزلى

ومن الدليل على أن كلام الله قديم أزلى، ما يروى عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - حين أنكر عليه الخوارج التحكيم، فقال: والله ما حكمت مخلوقاً وإنما حكمت القرآن.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾[النساء: ٣٥].

وقال عز وجل: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾[المائدة: ٩٥].

فإذا كان فى شقاق يقع بين الزوجين أمر بالتحكم، ففى شقاق يقع بين طائفتين من المسلمين التحكيم أولى، وأحرى.

وجميع الصحابة يسمعون قوله ولم ينكر عليه منكر، وسكتوا عنه كسكوتهم عند حرق عثمان المصاحف.

ففعل عثمان حجة لنا بأن الكتابة مخلوقة، وقول علىٍّ كرم الله وجهه - حجة لنا بأن المكتوب قديم، والاقتداء بعلى وعثمان - رضى الله عنهما - أولى وأحرى من الاقتداء بالقدرية والمشبهة.

---

(١) هذا أمر ثابت فى كتب السير والتاريخ والتراجم؛ حيث أجمعت على أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أحرق المصاحف المخالفة لمصحفه؛ وذلك كى يجتمع المسلمين على مصحف واحد؛ وكى لا تختلف الأمة عندما يكون هناك أكثر من مصحف، وهذا اجتهاد صحيح منه رضوان الله عليه؛ وهذه مصالح مرسلة اقتضتها الضرورة التشريعية، وحالة الأمة.

ومن الدليل على كلام الله تعالى قديم أزلى ، أنه لو كان مخلوقاً ، لكان لا يخلو؛ إما أن يكون قد خلقه فى ذاته أو خلقه فى غيره، أو خلق الكلام قائماً بذاته لا فى محل بطلان.

يقال خلقه فى ذاته لأنه تعالى ليس بمحل للحوادث، وبطل أن يقال خلقه فى غيره، لأنه يكون كلام ذلك الغير؛ وكما لا يجوز أن يقال إنه يخلق علمه وقدرته فى غيره، فكذلك أيضاً لا يخلق كلامه فى غيره لأنه يكون كلام ذلك الغير، ولا يجوز أن يقال إنه خلقه لا فى محل لأن الكلام صفته ، والصفة لا تقوم إلا بموصوف.

وإذا بطلت هذه الأقسام الثلاثة دل على أنه قديم أزلى ، فإن قيل: المتكلم إنما يتكلم ليسمع غيره أو يتكلم ليستأنس أو يتكلم ليحفظ وإذا كان المتكلم خالياً من هذه الثلاثة أقسام يكون كلامه هذياناً ولغواً.

والرب عز وجل لم يكن معه فى الأزل أحد يسمع كلامه، ولا يجوز أن يقال إنه تكلم ليحفظ، أو تكلم ليستأنس.

وإذا بطلت هذه الأقسام الثلاثة دل على أنه ليس متكلماً فى الأزل، يقال لهم: مقصودكم وغرضكم أن تثبتوا لصفاته الذاتية علةً وغرضاً. وإذا كانت أفعاله لا لعلة وغرض، لأنه لو فعل فعلاً لعلة كانت تلك العلة لا تخلو ، إما أن تكون قديمة أو محدثة. وإن كانت محدثة افتقرت إلى علة قبلها، وكذلك ما قبلها، ويؤدى ذلك إلى التسلسل ، وعدم التناهى ، ويؤدى ذلك إلى عدم المعلول ، وهذا محال أيضاً. فدل على أن الله عز وجل يفعل ما يفعله لا لعلة وغرض، بل يفعل ما شاء بما شاء لا لعلة.

وإذا ثبت أن صفات فعله لا لعلة وغرض، فصفات ذاته أولى وأحرى أن لاتكون لعلة وعرض، وبطل ما قالوه.

فإن قيل قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[الزخرف:٣]، والجعل معنى الخلق، يقال لهم : الجعل ههنا بمعنى التسمية والدليل عليه قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[الزخرف:١٩].

ومعلوم على أنهم لم يخلقوا الملائكة ، فدل على أن المراد بالجعل ههنا التسمية .

وكذلك قوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر:٩١] لم يرد به الخلق فدل على ما قلناه .

وإن قيل قد قال الله عز وجل : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[الأحزاب:٣٧] ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[الأحزاب:٣٨] .

فدل على أن أمر الله مقدور مفعول، وهذا دليل الحدث، يقال لهم : الأمر على ضربين، فتارة يقتضى الكلام، وهو قوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]. وقوله عز وجل: ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ﴾[الروم:٤] . أى من قبل كل شىء ومن بعد كل شىء، وهذا دليل واضح على قدمه .

وتارة يقتضى الفعل وهو قوله : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[الإسراء: ١٦] .

فهذا الأمر يقتضى الفعل حباً فى التفسير ، إن الأمر ههنا بمعنى كثرنا لأن الرب عز وجل لا يأمر بالفحشاء .

وإذا كان الأمر كذلك بطل ما قالوا ، ويكون المراد بقوله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ . فعله فإن قيل الدليل على خلق القرآن أنه معجزة النبى ﷺ وتحدى الأمة به ، فالتحدى إنما يكون بما للمتحدى عليه قدرةً، كإلقاء العصا، وإبراء الأكمة والأبرص؛ والقديم لا يكون للمخلوق عليه قدرة ولا يكون له فى التحدى به حجة فدل على ما قلناه، يقال لهم: التحدى إنما كان بالقرآن لا المقروء، وقد بينا الفرق بينهما فإن قيل، فقد قال الله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء : ٢] .

يقال لهم : الذكر قد يكون بمعنى القرآن ، فقال الله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩].

ويكون الذكر بمعنى الرسول ﷺ قال الله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[القلم: ٥١، ٥٢] ويقولون ذكراً رسولاً.

فالذكر المحدث ههنا النبى ﷺ، والدليل عليه آخر الآية قوله عز وجل: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[الأنبياء:٣] ومعلوم أن الكلام ليس ببشر ويحتمل أن يقال إن المراد بالذكر المحدث هذه القراءة لا المقروء.

فإن قال قائل من المشبهة : إذا قلتم إن الكتابة مخلوقة، يؤدى ذلك إلى أن المصحف ليس له حرمة، يقال لهم: إن الحرمة لا تثبت إلا بما هو قديم.

ثم لم يكن للجسد حرمة بحيث يمنع الجنب من اللبث فيه، والمرور على مذهب بعض الفقهاء، فكما أن الجسد بجميع أجزائه مخلوق، وله حرمة لأجل المعهود فيه.

فكذلك إنما المصحف بجميع أجزائه مخلوق وله حرمة؛ لأجل المكتوب فيه فإن قيل: إذا قلتم إن هذه الأحرف محدثة وليست القرآن؟ فالقرآن أين هو؟ يقال لهم: فإذا قلتم إن هذه الأحرف هى القرآن فالقديم أين هو فإن قيل فقد قال الله عز وجل آلم، طه، حسم؛ فدل على أن القرآن هو هذه الأحرف.

ويقال لهم : لا فرق بين هذه الآيات وغيرها، فإن الألف التى فى الحمد، والطاء التى فى طه ، كالطاء التى فى الطاغوت.

فجميع الأحرف التى فى السور سواء فيما ثبت لبعضها من القدم أو الحدث، ثبت لكليهما. ثم يقال : لو أن هذه الأحرف قديمة لأجل تخصيصها بالذكر، لكان الشمس والقمر والنجوم قديمة لتخصيصها بالذكر.

فكذلك الأحرف أيضاً، ثم يقال لهم : هذه الأحرف التى تثبتون قدمها فى القرآن هل هى أحرف أ ب ت ث أم لا ؟

فإن قيل غيرها، فهذا دفع للضرورة ، وإن قيل هى يقال لهم: فهل هى التى يكتب بها شعر المتنبى وحسان النقال أم لا؟ فإن قيل غيرها تكتب ما ذكرتموه، فهذا محال ودفع لما نعلمه ضرورة ، وإن قيل إن الأحرف التى يكتب بها القرآن هى التى يكتب بها ما ذكرناه.

فيجب القول بقدمها وأن يكون لها حرمة كحرمة المصحف، وهذا خلاف الإجماع.

ولو أن هذه الأحرف قديمة وهى القرآن، لكان المصلى إذا أتى بها فى الصلاة، وقال فى الصلاة أ ب ت ث ج ح خ د ذ لا تبطل صلاته ، فإن الإتيان بالقرآن فى الصلاة فى موضعه لا يبطلها.

ولكانت تجزيه عن قراءة غيرها، ولكان لها حرمة بحيث لا يجوز للجنب الإتيان بها، فلما لم يصح ذلك دل على أنها مخلوقة ، وإذا ترتب بعضها على بعض، وتآلف بعضها مع بعض، فهم منها المكتوب بها.

فإن كان القرآن صار لها حرمة، وإن كان غير القرآن لم يكن لها حرمة، فالذى يتجدد هو الحرمة لا القدم، لأنه لو جاز أن يصير المحدث قديماً، لجاز أن يصير القديم محدثاً، وهذا محال.

ومن الدليل على أن الكتابة غير المكتوب قوله تعالى: ﴿**النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾[**الأعراف**: ١٥٧] . فالنبى عليه الصلاة والسلام مكتوب على هذه الحقيقة فى التوراة والإنجيل غير حال فى التوارة والإنجيل، بل هو مدفون فى المدينة أو رفع إلى السماء على اختلاف العلماء فى ذلك.

فلو أن الكتابة هى المكتوب لكان النبى ﷺ موجوداً فى التوراة والإنجيل حالاً فيهما، فدل على أن الذى فى التوارة والإنجيل هى الأحرف المفهوم بها النبى ﷺ فهى غيره وهو غيرها، لأن حقيقة الغير لا يجوز لأحدهما أن يفارق الآخر، والكتابة مفارقة المكتوب منفصلة منه.

ولو أن الكتابة هى المكتوب لكان إذا كتب زيد على عمرو وثيقة بدين، وشهد فيها الشهود بذلك ثم قبضها يكون قد استوفى دينه ،فلما لم يصح ذلك دل على أن الكتابة يفهم بها المكتوب وليست هى المكتوب فالشهود مكتوبون فى الوثيقة على الحقيقة غير حالية فيها، وكذلك الدين.

ولو أن الكتابة هى المكتوب . لكان إذا قرأ القارئ : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[مريم:١٢] وأراد به القرآن، ثم قال يا يحيى خذ الكتاب، وأراد به إعلام المسيح أن يفرق بينهما عند السماع، وكذلك فى الكتابة أيضاً.

فلما لم يكن ذلك دل على أن الكتابة مخلوقة لا تختلف فى المفهوم بها يختلف، ثم يقال لهم : إذا قرأ القارئ هل يسمع منه القرآن كما يسمع من الرب عز وجل أم لا؟!

فإن قيل يسمع من الرب بخلاف ما يسمع من القارئ والأحرف والأصوات التى ثبت قدمها فى حقه ليست كهذه الأصوات المسموعة منا اليوم والأحرف المشاهدة لنا فقد رجعوا إلى مذهب أهل الحق وصار الخلاف معهم فى أن التسمية موقوفة على الشرع.

فإن ورد الشرع بأن كلام الله تعالى صـــوت وحـــرف سميناه بذلك، وإلا فلا؛ وإن قيل ليس بينهما فرق وذا ذاك ، وذا ذاك ؛ فهذا هو التشبيه بعينه، ويكون القرآن على قولهم حكاية، لأن المحاكاة المماثلة والمشابهة، ولا شبه لكلام الله ولا مثل له، كما أن الله عز وجل لا مثل له ولا شبه له[1]. ولو أن الكتابة هى المكتوب لكان إذا كتب أحدنا فى كفه ألف لام لام ها يكون الله عز وجل حالاً فى كفه.

ولما لم يصح ذلك دل على أن الكتابة غير الله عز وجل، ولما جاز على الرب جاز على صفة ذاته.

(١) يقول تبارك اسمه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

فكما أن الرب عز وجل مكتوب فى مصاحفنا ومعبود فى مساجدنا، ومعلوم فى قلوبنا ومذكور بألسنتنا غير حال فى شىء مما ذكرناه، فكذلك كلامه أيضاً، مقروء بألسنتنا على الحقيقة، قال الله عز وجل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[المدثر:٢٠].

ومتلوُ فى محرابنا على الحقيقة، قال الله عز وجل: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[الكهف:٢٧]، ومحفوظ فى صدورنا على الحقيقة، قال الله عز وجل: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩].

ومسموع بأذاننا على الحقيقة، كما قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾[البروج:٢١، ٢٢].

غير حال فى شىء مما ذكرناه، وللمصحف حرمة عظيمة ورعاية وكيدة؛ بحيث لا يجوز للمحدث الأصغر والأكبر مس ما فيه وحواشيه ولا كتابته ولاحمله مماسة ولا بعلاقة؛ احتراماً؛ قال الله عز وجل :﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة:٧٩].

والأدلة فى ذلك أبين من عين الشمس لمن تدبر وعقل لا من اتبع هواه، وجهل، فإن كنت قد كثرت مما لا يحتاج إليه فلا ملام لما قدمت من الاعترافات والسلام.

صفات الله عز وجل والإستواء على العرش

ثم يعتقدون أن الله عز وجل حي بحياة أزلية قديمة لأن الصفات التى ذكرناها لاتقوم إلا بمن هو حى، قال الله عز وجل ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾
[البقرة: ٢٥٥]

ثم يعتقدون أن صفات ذاته لا يجوز أن يقال هى هو، ولا : هو هى ولا هو غيرها ، ولا هى غيره. لأنها لو كانت هى هو لكانت الصفة الواحدة موصوفة بجميع الصفات التى ذكرناها، والصفة لا تقوم إلا بالصفة.

ولو كان هو هى لم يكن موصوفاً بها، لأن الصفة معنى زايد على الموصوف. ولو كانت غيره، وهو غيرها، لجاز لأحدهما أن يفارق الآخر، لأن حقيقة الغير من ما يجوز لأحدهما أن يفارق الآخر، بل يقال إنها صفات قائمات بذاته لم يزل موصوفاً ولا يزال.

ثم يعتقدون أن الله عز وجل مستوٍ على العرش، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾[الأعراف :٥٤] .

وإن استواءه ليس باستقرار ولا ملاصقة، لأن الاستقرار والملاصقة صفة الأجسام المخلوقة، والرب عز وجل قديم أزلى، أبداً كان وأبداً يكون، لا يجوز عليه التغيير ولا التبديل ولا الانتقال ولا التحويل.

والعرش مخلوق ، لم يكن فكان، قال الله عز وجل: ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[التوبة : ١٢٩] .

فلو أن المراد بالاستواء الاستقرار والملاصقة، لأدى إلى تغيير الرب، وانتقاله من حال إلى حال، وهذا محال فى حق القديم فإن كل متغير لا بد له من مغير، ولأن العرش مخلوق محدود.

فلو كان الرب عز وجل مستقراً عليه ، لكان لا يخلو، إما أن يكون أكبر، أو أصغر منه ، أو مثله.

فلو كان أكبر منه، لا يكون متبعضاً بعضه خالٍ من العرش، والبعض صفة الأجسام المؤلَّفة.

وإن كان أصغر منه فيكون العرش مع كونه مخلوقاً أكبر منه، وذلك نقص. وإن كان مثله يكون محدوداً كالعرش ، فإن كان العرش مربعاً، فيكون الرب مربعاً، وإن كان مخمساً فيكون الرب مخمساً، وما هو محدود له شبه وله مثل، ولا يكون قديماً، فدل على أنه كان ولا مكان ثم خلق المكان وهو الآن على ما عليه كان.

فإن قيل : إذا قلتم إنه ليس على العرش ولا فى السماوات ولا فى جهة من الجهات فأين هو؟!

يقال لهم : أول جهلكم وصفكم له بأين، لأن أين استخباراً عن المكان والرب عز وجل منزه عن ذلك.

ثم يقال لهم : هل تثبتون خلق العرش والسماوات وجميع الجهات أم لا؟

فإن قالوا : ليست مخلوقة، فقد قالوا بقدم العالم، وينتقل الكلام معهم إلى القول بحدث العالم، وإن وافقوا أهل الحق، وقالوا بخلق جميع الجهات ، يقال لهم : فهل كان الرب موجوداً قبل وجودها وهو الذى أوجدها من العدم إلى الوجود أم لا؟

فإن قيل : لم يكن موجوداً قبلها ولا أوجدها ، فقد قالوا بحدث الرب عز وجل، وهذا هو الكفر الصرَّاح.

وإن وافقوا أهل الحق فى القول بوجوده قبل وجود المخلوقات من العالم العلوى والسفلى ، قيل لهم : فأخبرونا عما كان عليه قبل وجودها.

فكل دليل لهم قبل وجودها هو دليل لنا بعد وجودها، فإن الرب عز وجل بعد وجود جميع المخلوقات على ما كان عليه قبل وجودها، لا يجوز على الرب التغيير من حال إلى حال ولا الانتقال من مكان إلى مكان قال الله عز وجل فى قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** ﴾[**الأنعام**: ٧٦] . أى لا أحب المتنقلين المتغيرين.

فمن وصف القديم بما نفـــاه عنه إبراهيم فليس من المسلمين، فإن قيل إذا لم يكن فى جهة، فما فائدة رفع الأيدى إلى السماء فى الدعاء وعروج النبىﷺ إلى السماء؟؛ يقال لهم : لو جاز لقائل أن يقول أن الرب عز وجل فى جهة فوق لأجل رفع الأيدى إلى السماء فى الدعاء لكان لغيره أن يقول : هو فى جهة القبلة لأجل استقبالنا إليها فى الصلاة؛ أو هو فى الأرض لأجل قربنا من الأرض فى حال السجود، وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «**أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل إذا سجد**»[1] .

قال الله عز وجل : ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾[**العلق**:١٩] فلو كان فى جهة فوق لما وصف العبد بالقرب منه إذا سجد ، فكما أن الكعبة قبلة المصلى، يستقبلها فى الصلاة، ولا يقال أن الله عز وجل فى جهة الكعبة ومستقبل الأرض بوجهه فى السجود.

لا يقال إن الله عز وجل فى الأرض، فكذلك أيضاً جعلت السماء قبلة الدعاء، لا أن الله عز وجل حالٌ فيها.

وكذلك أيضاً، عروج النبى ﷺ إلى السماء لا يدل على أن الله عز وجل فى السماء.

كما أن عروج موسى عليه السلام إلى الجبل وسماعه لكلام الله تعالى عنده لا يدل على أن الله عز وجل حال فى الجبل.

---

(١) رواه مسلم والنسائى والترمذى وأحمد بن حنبل بصيغ مختلفة ومنها «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء».

فعروج النبى إنما كانت زيادة فى درجته وعلواً لمنزلته، ليتبين الفرق بينه وبين غيره فى المنزلة وعلو الدرجة، فإن قيل : إذا لم يكن الاستواء بمعنى الاستقرار فما معناه؟

يقال لهم : قد اختلف الناس فى ذلك ؛ فمنهم من قال إن الاستواء بمعنى القهر والغلبة، واحتج على القائل لهذا، وقال: لو كان المراد القهر والغلبة لأدى ذلك إلى أن يكون قبله مقهوراً مغلوباً، وذلك محال.

ومنهم من قال : الاستواء بمعنى الاستيلاء، استوى على العرش أى استولى عليه.

يقال: استوى فلان على الملك ، أى استولى عليه؛ ومنهم من قال المراد به العلو، فقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه: ٥] يريد به الرحمن عَلَى ، والعرش به استوى وهذا أيضاً محال، لأن لو كان الأمر كذلك لكان العرش مرفوعاً لا محفوظاً، فدل على أن على من حروف الصفات ، لا من العلو.

ومنهم من قال : المراد به القصد كقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[فصلت:١١] ، أى قصد إلى السماء، وعلى بمعنى إلى، لأن حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض؛ وتأويلهم فى ذلك كثير، وكلامهم فى ذلك يطول ، والواجب من ذلك أن ننفى عنه ما يؤدى إلى حدوث الرب عز وجل، ثم لا نطالب بما عدا ذلك.

كما يعتقدون أن الله شىء موجود موصوف بصفاته ثم ننفى عنه ما يؤدى إلى حدوثه من صفة الأجسام والجوانب والأعراض، ثم لا نطالب بما عدا ذلك.

فإن قيل: نحن نجهل هذه الآية، وما أشبهها من الآيات، كاليدين والوجه، ومن الأخبار المروية عن النبى ﷺ من النزول والصورة والقدم ونحملها على الظاهر، ولا نتأولها.

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[آل عمران: ٧]. فنؤمن بها ولا نتأولها ، يقال لهم هذه الآية، دليل على القول بالتأويل لا على نفى التأويل، والدليل عليه قوله عز وجل: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾[آل عمران: ٧] والإيمان هو التصديق.

والتصديق بالشيء لا يصح مع الجهل، فدل على أن قوله ﴿ وَالرَّاسِخُونَ ﴾ فى العلم يقولون آمنا به ؛ أى يعلمونه ويقولون آمنا ، فيعلمونه مضمرٌ كقـــوله عز وجل: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم ﴾[الرعد: ٢٣-٢٤] أى يقولون سلام عليكم.

وإذا كانت الآيات والأخبار التى يقتضى العمل بها ، تتأول ولا تحمل على الظاهر ، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣]

فظاهر الآية يقتضى أن أهل الكبائر يخلدون فى النار، ويؤدى ذلك إلى القول بمذهب القدرية، فلا بد من تأويل هذه الآية.

فيكون المراد: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ لقتله مستحلاً لدمه، وكذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام: « **بين الإسلام وبين الكفر ترك الصلاة ، فمن تركها فقد كفر**»[1]، يتأول على مذهب أكثر الأئمة، ولا يحمل على الظاهر.

فالآيات والأخبار التى ظاهرها التشبيه، ولا يقتضى العمل بها، بل يقتضى العلم أولى وأحرى، لأننا إذا قلنا على العرش استوى، لا يقتضى العمل ولا له تأويل، فظاهره يقتضى حدوث الرب عز وجل وتشبيهه بالخلق، فما فائدة إعلامنا به.

لذلك قوله ﷺ «**خلق آدم على صورته**»[2]، إذا قلنا ليس لها تأويل ولا

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى بألفاظ مختلفة كلها صحيحة منها: « بين الرجل والكفر ترك الصلاة» ، و« بين العبد والشرك ترك الصلاة» ، ومن رواة الحديث جابر بن عبدالله وبُريدة رضى الله عنهما.
(٢) رواه الشيخان عن أبى هريرة، وهو حديث طويل، يذكر فى بدء الخلق، وفى أبواب أخرى من كتب السنة.

يقتضى العمل، فيكون هذياناً ولغواً، ونكون قد صدقنا الكفار فى قولهم معلم مجنون، أى يأتى بشىء لا معنى له.

نفى التشبيه عن الخالق عز وجل

وغرضهم من نفى التأويل بقاؤهم على التشبيه ، فإن لم يقولوا بالتأويل ونفوا التشبيه لم يطالبوا بغيره، ولم يجب عليهم أكثر من ذلك ، لأن الذى يحوجنا ويدعونا إلى التأويل قول المخالف لا أدرى ولا أتأول ، أنا أحمل هذا الاستواء على الظاهر ، ولا أدرى هل هو استقرار أو غير استقرار.

وكذلك قوله عز وجل : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥] ، أحملها على الظاهر ، ولا أدرى هل هما جارحتان أو غير جارحتين ، وهذا جهل منهم بالرب عز وجل، وذلك يؤدى إلى كفره.

لأن من جهل صفة من صفات معلومة لم يعرف المعلوم على ما هو به، وقوله لا أدرى، شك فى الله عز وجل، وقلة علمه بما يجوز له حقه، وما لا يجوز. لأن حمل هذه الآيات والأخبار التى ظاهرها التشبيه على ظاهرها إنما تصح بعد نفى التشبيه، وهو أن يعتقد أن هذا الاستواء ليس بجلوس، ولااستقرار، ولا ملاصقة.

ثم بعد ذلك هو مخير إن شاء تأول، وإن شاء حمله على الظاهر ، وكذلك قوله عز وجل ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾[يس: ٧١]. يعتقدون أن هذه اليد ليست بجارحة ولا تلمس، فما هى؟

يقال لهم : قد اختلف الناس فى ذلك ، فمنهم من قال : اليد ههنا يد قدرة ، والمراد بالتثنية الواحد، كقول الشاعر خليلى وصاحبى.

والدليل عليه أن جميع الموجودات والمخلوقات بقدرته وخص آدم بالذكر، كما أن المساجد كلها لله وخص الكعبة بالذكر ، والنوق كلها لله، وخص ناقة صالح بالذكر.

فكذلك أيضاً ههنا خلق آدم وجميع المخلوقات بيده، وخص آدم بالذكر تشريفاً وتخصيصاً ، ومنهم من قال : اليد ههنا صفة زائدة على القدرة، خص آدم وخلقه بها، واحتج على القائل بهذا وقيل: لو أن المراد باليد ههنا صفة زائدة على القدرة لأدى إلى أن يكون للرب صفات كثيرة لا نعلمها، وهذا يؤدى إلى الجهل بالرب.

والواجب من ذلك ما ذكرته ، وهى نفى التشبيه والاعتقاد ، بأن هذه اليد ليست بجارحة ولا تلمس.

وكذلك جميع الأخبار التى ظاهرها يقتضى التشبيه كقوله عليه الصلاة والسلام «**خلق آدم على صورته**» ، وقوله عليه الصلاة والسلام : «**إن النار يلقى فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع الجبار قدمه فيها**»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام «**رأيت ربى فى أحسن صورة**»[2].

فالواجب فى ذلك الاعتقاد، بأن الهاء فى قوله :« **خلق آدم على صورته**» عائدة إلى آدم ، أو إلى الصورة لا إلى الرب عز وجل.

لأن الرب عز وجل ليس بصورة، لأن الصورة لابد لها من مصور، والرب عز وجل منزه عن ذلك.

وكذلك القدم أيضاً عائد إلى قدم الجبار الكافر، قال الله عز وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[إبراهيم :١٥]. أو عائد إلى من قدمه الرب عز وجل فى السابق أنه من أهل النار.

---

(١) هذا الحديث الشريف ورد بعدة صيغ منها ما خرّجه الإمام البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قالﷺ فى تفسير هذه الآية ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق:٣٠] فقال: « يلقى فى النار وتقول هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط» والحديث المذكور هنا روايته أقرب إلى ما رواه الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه بصيغة قريبة جداً.

(٢) الحديث الشريف «أتانى ربى فى أحسن صورة» قال أحسبه فى المنام من الأحاديث المشهورة فى سنن الإمام الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، غير أنه حديث حسن غريب.

قال الله عز وجل : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢] أى سابقة صدق لا إلى الرب عز وجل

قال الله عز وجل : ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[الأنبياء:٩٩] ، فمن يعتقد ويؤمن بأن الله إله ومع ذلك لا تمتلئ جهنم إلا به ، فالسكوت عنه أولى من الكلام معه ومناظرته ، لأنه لم يستفد من عقله غير التكلف الذى به يستحق العقوبة ، والتخلد فى النار.

وإنما العاقل على الحقيقة ، من يتوصل بعقله عند نظره واستدلاله إلى الحق، كما بيّنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدل على خلق الكوكب والشمس والقمر بالتغيير والأقوال والانتقال من حال إلى حال.

وأمرنا الرب عز وجل باتباعه لإصابته الحق، لا من يعتقد ويصف الرب بالنزول والانتقال، والتغير من حال إلى حال، ويمر هذه الأخبار على ظاهرها من غير تأويل ولا نفى تشبيه بجهله وحماقته وقلة علمه وبصيرته وتأويل هذه الأخبار يطول شرحه، وليس هذا موضعه.

موسى والرسول الكريم عليهما الصلاة والسلام ورؤية الحق تعالى

ثم يعتقدون أن النبى ﷺ نبوته باقية بعد وفاته لبقائها حال حياته إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها.

وإن شريعته ناسخة لجميع الشرائع وجميع الخلق يخاطبون بها، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨].

ومعجزه باق وهو القرآن، قال الله عز وجل: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾[هود:١٣]، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[يونس:٣٨]. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[الإسراء:٨٨].

وإن معراجه صحيح ، وكان فى اليقظة لا فى المنام فأسرىَ به إلى بيت المقدس ، قال الله عز وجل :﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾[الإسراء:١].

ومحال أن يقول أسرى به ولم يسر به ، وعرج به إلى السماوات السبع وإلى العرش. وعرض عليه جميع المخلوقات، قال الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[النجم:١٨]. وسمع كلام الله القديم الأزلى بلا واسطة، كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام بلا واسطة ، قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾[النجم:١٠].

فالفرق بين نبينا وبين موسى عليهما الصلاة والسلام، أن موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام الرب عز وجل وهو على وجه الأرض، من وراء حجاب، ونبينا عليه الصلاة والسلام سمع كلام الله عز وجل، وهو بالأفق الأعلى لا من وراء حجاب بل مع المشاهدة، قال الله عز وجل: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[النجم:١١]، أى ما كذب الفؤاد ما رآه بعين رأسه.

وأن جميع ما أخبر به صدق، من قوله عليه الصلاة والسلام: **«أشرفت على الجنة فوجدت أكثرها البُله، وأشرفت على النار فوجدت أكثرها النساء»**[1].

وهذا دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان ، قال الله عز وجل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]. ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٢٤، آل عمران: ١٣١].

محال أن يقول: أُعدَت، فمن انكر ذلك فقد كذب الله عز وجل ورسولهﷺ فيما أخبرا به وذلك كفر.

والمعراج والإسراء غير مستحيل فى العقل، فالإيمان به واجب والمنكر له مكذب لما أخبر به الرب عز وجل.

وكذلك المنكر للشفاعة أيضاً والحوض والصراط والميزان، قال النبى ﷺ: **«ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى»**[2].

---

(١) ورد الحديث بعدة روايات، لعل أكثرها شيوعاً ما ورد فى مسند الإمام أحمد قوله ﷺ: « أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

(٢) أحاديث الشفاعة كثيرة فى كتب الصحاح، ولا خلاف على ثبوت شفاعته ﷺ بأدلة نقلية لا حصر، والحديثان اللذان ذكرهما الشيخ رحمه الله يدخلان فى سياق ثبوت الشفاعة، وردا فى سنن ابن ماجه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ، وفى غيره من كتب السنن والفضائل.

ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**تخرج طائفة من أمتى من النار بشفاعتى وقد صاروا كالحممة**»[1].

والأخبار الواردة فى الحوض والميزان والصراط وعذاب القبر مشهورة معروفة.

فمن رد خبراً منها كمن رد كلام الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر:٧].

الخلفاء الراشدون فى أفضليتهم

ثم يعتقدون أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم، وأن المقدم فى الخلافة هو المقدم فى الفضيلة، لاستحالة تقديم المفضول على الفاضل، لأنهم كانوا يراعون الأفضل فالأفضل؛ والدليل عليه أن أبا بكر لما نص على عمر قام إليه طلحة رضى الله عنه فقال: ما تقول وقد وليت علينا فظاً غليظاً، فقال له أبو بكر رضى الله عنه: حركت لى عينيك، وذللت لى عقبيك، وحمتنى تلفتنى عن رأى، وتصدنى عن ذنبى، بل أقول له إذا سألنى: خلفت عليهم خير أهلك.

فدل ذلك إنهم كانوا يراعون الأفضل فالأفضل، وأن النبى ﷺ لم يصرح بالنص على أحد، وإنما ثبتت الخلافة بالإجماع لا بالنص، وقد قيل إنها ثبتت بالنص، ولكنه نص خفىٌ يحتاج إلى تأويل وتأمل؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «**مروا أبا بكر فيصل بالناس**»[2] لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يتقدمهم غيره، اقتدوا بالذين من بعدى أبو بكر وعمر.

---

(١) أحاديث الشفاعة كثيرة فى كتب الصحاح، ولا خلاف على ثبوت شفاعته ﷺ بأدلة نقلية لا حصر، والحديثان اللذان ذكرهما الشيخ رحمه الله يدخلان فى سياق ثبوت الشفاعة، وردا فى سنن ابن ماجه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه، وفى غيره من كتب السنن والفضائل.

(٢) هذا حديث صحيح؛ ذكره الإمام البخارى فى باب الاعتصام، وذكره غيره كذلك، ورواته جميعاً ثقات.

وكقوله فى على رضي الله عنه : **« انت منى بمنزلة هارون من موسى، من كنت مولاه فعلىٌ مولاه»**[١].

والصحيح أنه لم ينص على أحد، والدليل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: **«إن تولوها أبو بكر تجدوه ضعيفاً فى نفسه، قوياً فى أمر الله، وإن تولوها عمراً تجدوه قوياً فى بدنه قوياً فى أمر الله ، وإن تولوها عثمان تجدوه هادياً مهدياً ، وإن تولوها علياً يهدى إلى الصراط المستقيم»**[٢].

فأخبر أن كل واحد منهم يصلح للإمامة على الانفراد، ولم ينص على أحد لأنه لو نص على أحد لما قال: إن تولوها، ولما قالت الأنصار: منا أمير، ومنكم أمير[٣].

فدل على أن الخلافة بعد النبى ﷺ لأبى بـكر رضى الله عنه بالإجماع لا بالنص والإجماع حجة.

قال الله عز وجل : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥].

فإن قيل على أولى بالخلافة لأنه أعلم من أبى بكر وأشجع، وكان أقرب إلى النبى ﷺ من أبى بكر لأنه كان ابن عمه، يقال لهم : هذا ليس بصحيح، والدليل على أن أبا بكر كان أعلم الصحابة بعد النبى ﷺ وأشجعهم قوله يوم الردة : لو منعونى عقالاً أو عناقاً مما أعطوا رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ولو جلانى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى[٤].

---

(١) هذا القول رده الشيخ بعد قليل، ولم يوافق عليه، ولعلنا فى حاجة لقراءة هذا النص العظيم عن على رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « أنت بمنزلة الكعبة ، تؤتى ولا تأتى ، فإن أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك - يعنى الخلافة - فاقبل منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك».

(٢) ذكر هذا النص ابن الأثير فى (أسد الغابة) عن الإمام على رضي الله عنه عندما سأل رسول الله ﷺ يا رسول الله، من يؤمر بعدك؟ وهكذا وردت فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ١/١٠٨، ١٠٩.

(٣) ذكر هذا ابن الأثير (فى أسد الغابة) فى حادثة تولى أبى بكر الخلافة وذلك بروايات عديدة (٣/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٤) جزء من حديث شريف أخرجه الإمام مسلم عن عبدالله بن عتبة عن أبى هريرة رضى الله عنهما . .

فقال عمرو رضي الله عنه : سمعت النبى ﷺ يقول:« **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم**»[1] .

فقال أبو بكر رضي الله عنه سمعته ﷺ يقول :« **إلا بحقها ، والزكوة من حقها، والله لا أفرق بين ما جمع الله عزوجل، قال الله عزوجل** ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[المزمل:٢٠]».

وكان النبى ﷺ قبل وفاته قد جهز جيشاً ثم مات ، والجيش مجهز لم يسر، وارتد الناس ثم مات، فقال عمر لأبى بكر رضى الله عنهما: الناس قد ارتدوا ، وحماة الإسلام فى هذا الجيش ومن الرأى رده من المسير لما قد جهز له؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : أشجاع فى الجاهلية وخوار فى الإسلام، والله لا رددت جيشاً جهزه رسول الله ﷺ.

قال عمر رضى الله عنه : لم يبق إحدانا ولا غيرى إلا وداخله شك إلا ما كان من أبى بكر رضي الله عنه[2] .

ومن الدليل أن أبا بكر أشجع من على رضي الله عنه أن النبى ﷺ أعلم علياً بموته، فقال له : ابن ملجم يقتلك، فكان على رضى الله عنه إذا لقى ابن ملجم يقول: متى تخضب هذه من هذه؟ يعنى لحيته من دم رأسه[3].

فكان إذا دخل الحرب فلاقى الخصم، يعلم أن ذاك الخصم لا يقتله فهو معه كأنه نائم على فراشه؛ وأبو بكر رضى الله عنه كان إذا دخل ولاقى الخصم، لايدرى هل يقتل أم لا يقتل؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) ما قاله الفاروق عمر رضي الله عنه كان رداً على ما قاله الصديق رضي الله عنه (والله لو منعونى عقالاً ..) فقال الفاروق (فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق) ، وهذا الحديث أخرجه مسلم عن عبدالله بن عتبة عن أبى هريرة رضى الله عنهما.

(٣) هذه رواية صحيحة ؛ وردت بألفاظ مختلفة ، وقد ذكرها ابن الأثير فى (أسد الغابة ٤/ ١١٧).

فمن دخل الحرب وهو لا يدرى هل يقتل أم لا، ويقاسى من الكر والفر والجزع والفزع ما يقاسى ، يكون كمن يدخل الحرب، وهو نائم كأنه على فراشه. فدل على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أشجع ثم يقال لهم : الشجاعة ليس فيها فضل والدليل عليه ، لو أن الشجاع تخلف عن الجهاد وجاهد الجبان وكان الفضل للجبان لا للشجاع المتخلف.

ثم لو جاهدوا جميعاً وقلنا الفضل للجبان ، كان غير بعيد لأن الجبان يقاسى من المشقة ما لا يقاسيه الشجاع الذى له دربة بالحرب، فإذا قلنا إن الجبان أفضل لما يناله من المشقة فى كَرِه وفره يكون غير بعيد.

وكذلك القرابة أيضاً ليس فيها فضل لأن الإنسان يكتسب الفضل بما يفعله بنفسه، قال الله عز وجل ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾[**النجم**:٣٩].

والقرابة شىء إلى الله عز وجل ليس مما يكتسب العبد فضلاً وغيره، والدليل عليه أن والد النبى ﷺ ووالدته فى النار، فلو أن القرابة تقبل شيئاً لإفادتهما لأنهما أقرب من غيرهما.

وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ، أنه قال لفاطمة عليها السلام: إن أردت اللحوق. بى فعليك بكثرة السجود[1].

أحالها على العمل لا على النسب والقرابة، ولو أن القرابة ينال بها فضلاً لكان العباس أفضل من على، لأن العباس عم النبى ﷺ ، وعلى ابن عمه، والعم أقرب من ابن العم، وعلى أفضل من العباس، فدل على أن الفضل بمعنىً آخر ليس بالقرابة.

(١) الثابت أن السيدة فاطمة رضى الله عنها كانت أسرع أهل البيت لحوقاً به ﷺ وقد توفيت بعده ﷺ بستة أشهر، وأما وصيته لها ﷺ بكثرة السجود فلا يمنع أن تكون عامة لكل الأمة، وقد تكرر هذا فى احاديثه ﷺ ومن ذلك أن صحابياً قال لرسول الله ﷺ : اسألك مرافقتك فى الجنة؟ فقال له الحبيب ﷺ: أعنى على نفسك بكثرة السجود.

وهو ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، وكلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى فضل على عجمى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1].

فإن قيل على أعلم من أبى بكر رضى الله عنهما، لأن النبى ﷺ قال: أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد المدينة فليقصد الباب[2].

يقال لهم : هذا الخبر لا يخلو، إما أن يكون علىّ رواه أو غيره، فإن كان غير على رواه فهذا أعلم من العلوم قد علمناه من غير الباب، وإذا جاز أن يعلم علم من العلوم من غير الباب جاز أن يعلم جميعها أو أكثرها من غير الباب.

وإن كان على قد رواه، فهذه شهادته لنفسه، وشهادة الرجل لنفسه لاتقبل، فدل على أن الخبر له معنى غير ما ذهبوا إليه.

وقوله عليه الصلاة والسلام : أنا مدينة العلم وعلىّ بابها، لم يرد علياً بن أبى طالب كرم الله وجهه وإنما أراد بقوله: على بابها ، أى رفيع بابها وعظيم شأنها، كقوله تعالى:﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾[الحجر:٤١]. بقراءة يعقوب الحضرمى أى رفيع مستقيم.

فيكون علىّ ههنا بمعنى عال، كما قال امرؤ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من علٍ

(أى من عال).

وإذا كان بمعنى عال فلا حجة لهم فيه ، والدليل على أن أبا بكر رضى الله عنه أعلم وأفضل، قوله ﷺ : « **يؤمكم أعلمكم وأفضلكم**» ثم لما وقع ﷺ فى النزع وحضر وقت الصلاة قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

---

(١) ذكره الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن محمد بن حبيب بن خرامش العصرى عن أبيه ، وذكره غيره من طرق شتى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ، وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه.

(٢) هذا الحديث مذكور فى الأحاديث الضعيف (الألبانى / ٢٩٥٥) بنص (أنا مدينة العلم، وعلىٌّ بابها، فمن أراد العلم فيأت الباب).

يقول على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كنت حاضراً بين يدى النبى ﷺ وما كنت غائباً ، فقال: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»**؛ وتركنى فرضينا لدنيانا ما رضيه رسول الله ﷺ لديننا[1].

فإن قيل على أولى بالخلافة من أبى بكر لقول النبى ﷺ : **«أنت منى بمنزلة هارون من موسى»** يقال لهم : هذا الخبر أيضاً لا حجة لكم فيه لأنه إن أراد بقوله أنت منى بمنزلة هارون من موسى، أنت أخى كما أن هارون أخو موسى، فهذا لا يصح لأن علياً كان ابن عمه، لم يكن أخاه.

فإن أراد به أنك الخليفة بعدى، كما أن هارون كان الخليفة بعد موسى -عليهما الصلاة والسلام - فهذا فاسدٌ أيضاً. لأن هارون مات قبل موسى، فلم يكن الخليفة بعده، فلو كان المراد به الخلافة لقال: منزلتك منى منزلة يوشع بن نون، لأن الخليفة بعد موسى كان يوشع بن نون.

فدل على أن الخبر له معنى غير ما ذهبوا إليه، وذلك أن النبى ﷺ خرج إلى بعض الغزوات، واستخلف علياً فى أهله، فقال المنافقون: إنما خلفه بغضاً وقلى[2] ؛ فلحق على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبى ﷺ وقال: إن المنافقين قالوا كيت وكيت.

فقال النبى ﷺ: كذبوا ، خلفتك كما خلف موسى هارون، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى لأن موسى لما توجه لميقات ربه استخلف هارون فى قومه، وإذا كان المراد به الخلاف فى الحال الحياة، فهذا لاحجة لهم فيه، فإن النبى ﷺ كان يستخلف على أهله فى كل غزوة يغزوها رجلاً من أصحابه كابن أم مكتوم وغيره.

---

(١) قال الإمام على رضى الله تعالى عنه عن الصديق أبى بكر : ذاك امرؤ سماه الله عز وجل صديقاً على لسان جبريل ولسان محمد ﷺ، كان خليفة رسول على الصلاة ، رضيه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا. (ابن الأثير/ ٣/ ٣٢٤).

(٢) القال : الكاره ، وقلى : كراهيته.

فإن قيل: فقد قال النبى ﷺ : من كنت مولاه فعلى مولاه، يريد من كنت أولى به فعلى أولى به ، يقال لهم: مولى ههنا بمعنى الناصر، أى من كنت ناصره فعلى ناصره، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[التحريم:٤] أى ناصره.

وقال الشاعر : **إذا ذل مولى المرء فهو ذليلُ** ، أى إذاذل ناصره.

وإذا كان المراد به من كنت ناصره فعلى ناصره، فإن النبى ﷺ كان ناصراً لأبى بكر رضي الله عنه ولم يكن خاذلاً له، بل كان كل واحد منهما ناصراً لصاحبه ومؤنساً له.

قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾[التوبة:٤٠] **الآية**؛ وعلى بن أبى طالب - رضوان الله عليه - قد كان ناصراً له أيضاً، فإن أبا بكر رضي الله عنه لما قال: أقيلونى أقيلونى، لم يقم غير على رضي الله عنه فقال:(والله ما نقيلك ولا نستقيلك، قدّمك رسول الله ﷺ فمن الذى يؤخرك، رضيك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا)[1].

وجاهد بين يديه وتسرى بالحنفية فى أيامه، وولدت له محمد بن الحنفية، ولم يظهر غير الموافقة والنصرة.

فإن قيل : لو كان أهلاً للخلافة، ما قال أقيلونى أقيلونى، لأن الإنسان لايستقيل من الشىء إلا إذا لم يكن أهلاً له، يقال لهم: أقيلونى يدل على زهده وورعه وخوفه من الزلل فى أمر الأمة، يطلب الاستقالة لأجل ذلك.

ولأنه سمع النبى ﷺ يلعن إماما أم قوماً وهم له كارهون، فخشى أبو بكر رضي الله عنه أن يكون فيمن ولى عليهم من هو كاره له، فقال: أقيلونى أقيلونى، فلما أجابوه بالقبول والاستبشار، ولم ينكر عليه منكر خف عنه بعض ما تَوهَمَ من كراهة كاره.

---

(١) ارجع إلى ابن الأثير (أسد الغابة ٣/ ٣٢٤).

ولهذا روى أنه رأى جبلاً فقال: للجبل: لو كان بك مثل ما بى لتقطعت؛ ولأن كل إنسان يطالب بأمر نفسه، والإمام يطالب بأمر نفسه وأمر الأمة، فطلب الاستقالة لأجل ذلك.

وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «**من ولى على المسلمين رجلاً وهو يعلم أن فى المسلمين من هو خير منه فقد خان الله ورسوله**»[1].

فلو كان فى الصحابة من هو أفضل من أبى بكر الصديق رضي الله عنه لما أجمعوا على خلافته، لأن ذلك يؤدى إلى خيانة الله ورسوله، والأمة لا تجتمع على ضلالة وللخبر المروى عن النبى ﷺ فى ذلك.

ومن الدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر رضي الله عنه**»[2].

وهذا صريح كما ترى.

---

(١) فى هذا المعنى وردت أحاديث كثيرة، منها الحديث المتفق عليه عن أبى يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» وفى رواية لمسلم «ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم، وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة».

(٢) الأحاديث فى فضل الصديق رضي الله عنه كثيرة وعظيمة فقد بشره رسول الله ﷺ بالجنة وقال عنه: «ولو كنت متخذ خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا»، وأخبر الله عز وجل رسوله أن الله تعالى عنه راض، وقد نظر رسول الله إلى أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقال: «هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين».. وقال عمر رضي الله عنه على المنبر: ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر فمن قال غير ذلك بعد مقامى هذا فهو مفتر).

بين الإمام على ومعاوية رضى الله عنهما

فإن قيل أخبرونا بما جرى بين على ومعاوية - رضى الله عنهما - ؛ الحق كان مع من كان منهما؛ يقال لهم: اختلف الناس فى ذلك ، فمنهم من قال: الحق كان مع على لقول النبى ﷺ : «**على على الحق والحق معه حيث دار**»[1] .

ومنهم من قال: إن كل واحد منهما كان مجتهداً مصيباً، لقول النبى ﷺ «**كل مجتهد مصيب**»[2]. وإنهما لم يختلفا فى الأصول، وإنما اختلفا فى الفروع، كاختلاف الشافعى رضي الله عنه وأبى حنيفة؛ والناس فى ذلك على قولين فمنهم من يقول: إن الحق فى جهة، وإن المخالف فى تلك الجهة مخطىء له أجرٌ، لا أنه خطأ يؤدى إلى كفره ولا فسقه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ ، فله أجر**»[3] .

ومنهم من يقول : كل منهما مصيب للخير، وحملوا أمر معاوية وعلى رضي الله عنه على ذلك.

وذلك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان الخليفة، وهو ابن عم معاوية، فقُتل مظلوماً، وولى بعده الخلافة على رضي الله عنه فجاءه معاوية وطالبه بدمه، فقال على رضي الله عنه : من قتل عثمان؟

فقام الخلفاء كلهم فأدى اجتهادهم إلى تركهم ذلك اليوم ، لأنه لا يمكنه قتل جميعهم وخشى على نفسه أيضاً أن يقتلوه كما قتلوا عثمان رضي الله عنه .

---

(١) لم يرد نص بهذا المعنى فيما نعلم، بل وردت نصوص أخر ترجح فضل الإمام على وعلمه وخلقه و رأيه.

(٢) ورد هذا النص فى كتب الفقه، والغالب أنه من أقوال أبى حنيفة النعمان رحمه الله، كما يقول السرخسى، وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه المشهور فى هذا الباب دليل على مشروعية الاجتهاد فى التوصل للحكم ونتدبر ما قاله الإمام أبو حنيفة فى هذا (ان المجتهد المخطئ مصيب ابتداءً) أى مأجور بفعله ، وقد يخطىء انتهاءً.

(٣) ورد الحديث الشريف بروايات متعددة، وقد ذكره الإمام الشافعى رحمه الله فى الرسالة (ص٩٩-١٠١) ، (٥٩٩-٦٠٠).

فلما تركهم ظن معاوية وأصحابه أنهم قد تركوا شرطاً من شروط الإمامة لأن من شروط الإمامة استيفاء الحقوق، فإذا لم يستوف الحقوق فقد ترك شرطاً من شروط الإمام وبطلت إمامته، والعصر لابد له من إمام فعقدوا لمعاوية بهذا الاجتهاد فكل واحد منهما كان مجتهداً مصيباً.

والدليل على أنه لم يجر بينهم ما يؤدى إلى الكفر والفسق، أن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا قاتل الكفار يظهر الفرح والاستبشار ، وفى حالة قتاله لمعاوية ظهر منه الهم والحزن وأشرف على القتل، فقال أبو الحسن: كل هذا بيننا إلى الله أشكو عجزى ونجزى، أي همومى وأحزانى، يا ليتنى مت قبل هذا بعشرين سنة.

وكان يقول لأصحابه :ألا لا يتبع مولٍّ ولا يدفف على جريح، فلو وجد منهم ما يؤدى إلى كفرهم وفسقهم لما أمر أصحابه بذلك، وروى أن بعض أصحابه قال له : أكفارٌهم؟ ، فقال لهم: إخواننا بغوا علينا.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الحجرات:٩] .
فسماهم الله فى حال القتال مؤمنين، ولم يقل: وإن طائفتان مؤمنة وكافرة.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[الحجرات:١٠]
والصلح لا يكون إلا بعد القتال؛ وإذا كان إخوة يوسف مع كونهم أنبياء، والأنبياء أفضل من الصحابة، يفعلون بيوسف ما فعلوا، ويوسف أخوهم وشقيقهم جسداً، فيما يتعلق بأمور الدنيا.

فمن نزلت درجته عن درجتهم لا يستبعد منهم ما يجرى بينهم من قتال أو غيره فيما يتعلق بأمور الدين.

والدليل على أن ما جـرى بينهم لم يكـن متعلقاً بأمور الدنيا، أن عمـرو ابن العاص كان وزير معاوية، فلما قُتل عمار بن يسار أمسك عن القتال، وتابعه على ذلك خلق كثير.

فقال له معاوية : لم لا تقاتل؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار بن يسار: **«تقتلك الفئة الباغية»**(١)، ونحن قتلناه، فدل على أن نحن بغاة.

فقال له معاوية: ما نحن قتلناه، قتله من أرسله إلينا يقاتلنا، أما نحن دفعنا عن أنفسنا فقتل.

فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فقال: إن كنت أنا قتلته ، فالنبى ﷺ قاتل حمزة حين أرسله إلى قتال الكفار، ولهذا قال بعض أصحابنا : إن علياً كان مجتهداً مصيباً فله أجران، ومعاوية كان مجتهداً مخطئاً فله أجر.

والواجب فى ذلك الإمساك عما شجر بينهم، وذكر محاسنهم، لما روى عن النبى ﷺ أنه قال:**«سيجرى بين أصحابى هنيهة يغفرها الله لهم لسابقتهم، فإياكم وما شجر بينهم، فلو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ، ولا نصيفه»**(٢).

وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾[الحشر:١٠]. وقال عز وجل: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾[التوبة:١٠٠].

فأسأل الله البديع الرفيع أن يحشرنا فى زمرتهم، وأن يغفر لنا ولهم بمحبتهم، ويبغض إلينا من يبغضهم، فقد روى فى الخبر، عن رسول الله ﷺ: **« أن الله عز وجل إذا علم من عبدٍ أنه يبغض صاحب بدعةٍ غفر الله له، وإن قل عمله»**(٣).

---

(١) ورد الحديث بروايات متعددة منها «ويح ابن سمية ، تقتلك الفئة الباغية » وقد أخرج أبو يعلى وابن عساكر عن خالد بن الوليد رضى الله عنه عن ابنة هشام بن الوليد وكانت تمرض عماراً قالت: جاء معاوية رضى الله عنه إلى عمار رضى الله عنه يعوده فلما خرج من عنده قال: اللهم لا تجعل منيته بأيدينا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تقتل عماراً الفئة الباغية».

(٢) أخرجه البزار عن أبى هريرة رضي الله عنه ومثله فى صحيح مسلم فى باب فضل الصحابة.

(٣) أحاديث النهى عن الابتداع فى الدين والإتيان بمحدثات الأمور مما ورد فى الصحيحين عن السيدة عائشة رضى الله عنها وغيرها، فكل بدعة ضلالة وفى الترمذى وابن ماجة نقرأ قوله ﷺ: « من ابتدع بدعة ضلاله لا يرضاها الله ولا رسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً» ، وعنه ﷺ : « ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة» . . أما الأحاديث التى أوردها الشيخ رحمه الله فى هذا الباب فلم نعثر عليها فى كتب الصحاح.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: « **من أشهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه إيماناً وأمناً** »[1]؛ وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: « **من أهان صاحب بدعة أمنه الله من الفزع الأكبر** »[2]، فليس يبغضهم إلا مشرك كافر لما روى عن النبى ﷺ أنه قال لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - « **يا على يخرج قوم من قبل المشرق يقال لهم (الرافضة) فإن أدركتهم فاقتلهم، فإنهم مشركون وعلامة ذلك أنهم يسبون أبا بكر، وعمر رضى الله عنهما** »[3].

وحكى أن أبا نواس رُؤِى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى، فقيل له: بم؟؛ فقال: بأربعة أبيات قلتها، فقيل له: وما هى؟ قال: هى:

إنى رضيت أبا حفص وشيعته كما رضيت عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت قدوة عَلَماً وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة عندى قدوةً عُلماء فهل على بهذا القول من عار
إن كنت تعلم أنى لا أحبهم إلا لوجهك فاعتقنى من النار

فكما أن محبتهم واتباعهم توصل إلى الجنة وإن كثرت الذنوب، فكذلك بغضهم وترك اتباعهم والاقتداء بهم يكون سبباً للخلود فى النار، وإن كثرت من الطاعة.

---

(١) ، (٢) المرجع السابق.

(٣) هذا الحديث يدخل فى باب ما ذكررسول الله ﷺ أنه سيحدث وقد حدث (الغيبيات) ، وقد ظهر من الشيعة والمتشيعين من يسبون الصحابة، ويسبون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما وهذه غفلة، وبعد عن الحق، ومعاداة لرسول الله ﷺ الذى قال كما أخرج الديلمى عن الإمام على رضى الله عنهما «أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتى وأصحابى» وبغض الصحابة نفاق، وإحباط للعمل، كيف وقد اختارهم الله على العالمين كما أخبر المعصوم ﷺ؟
انظر إلى قوله ﷺ كما أخرج البراز عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال ﷺ : « إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لى من أصحابى أربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، فجعلهم أصحابى، وقال فى أصحابى كلهم خير» وعند الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله ﷺ : « من سب أصحابى لعنه الله والملائكة والناس أجمعون» وعنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها قال ﷺ : «لاتسبوا أصحابى لعن الله من سب أصحابى».

النهى عن تكفير الصحابة رضى الله عنهم

فمن اعتقد غير ما أشرنا إليه من اعتقاد أهل الحق المنتمين إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فهو كافر، ومن نسبت إليهم غير ذلك فقد كفرهم، فيكون كافراً بتكفيره لهم، لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: « **ما كفر رجل رجلاً إلا باء به أحدهما ، إن كان كافراً إنه لكما قال، وإن كان مسلماً لقد كفر بتكفيره إياه**»[1].

فمن كان هذا اعتقاده ودينه فكيف يستحل للمسلم أن يغتابه فضلاً أن يكفره ويلعنه؛ وهل فى هذه الاعتقادات ما يجحده أحد، أو يستمر عنه عالم أو عابد إلا ملحدٌ هرى[2] أو موهم حشوى[3] بدعى، نعوذ بالله من الخذلان وسوء التوفيق والحرمان.

فليت شعرى هذا الذى ينسب إليهم فى أى كتاب وجدوه لهم، ومتى سمعوه منهم، ومن هذا الذى نقله عنهم، فالله عز وجل حسبنا وحسبهم، فإن قيل أنتم تقولون هذا فى الظاهر وتعتقدون خلافه فى الباطن.

يقال لهم: لا فـــرق بيننا وبينكم، وليس فى ذلــك لبعضنا من بعــض إلا الظاهر، وليس مكتوب بين أعيننا صادق ولا كاذب.

فإذا قلتم : أنتم تعتقدون فى الباطن بخلاف ما تظهرون به، قلنا لكم، وأنتم تعتقدون فى الباطن أن الله ثالث ثلاثة، فليس تصديقكم فيما تدعونه بأولى من تصديقنا، وإذا كان النبى ﷺ ، لم يعلم حال المنافقين وحملهم

---

(١) أخرجه مسلم عن نافع عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ولفظه « إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما».

(٢) الهرى : الفاسد.

(٣) الحشوى : الذى لا خير فيه.

على الظاهر حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[المنافقون:١].

لو لم يعلم الرب - عز وجل - بما هم عليه من الباطن ما علم، وكذلك حال عائشة - رضى الله عنها - لما رموها بالإفك، ومضت إلى بيت أمها مرضت من الهم والغم، وكان النبى ﷺ يجىء إلى البيت، ويقف على الباب ويقول: كيف تيكم، ولا يقل عائشة لما ثقل قلبه عليها، حتى نزلت براءتها من السماء[1].

فإذا كان النبى ﷺ يحمل هذه الأمور على ظاهرها ولم يعلمه الرب -عز وجل- باطنها، لما علم، فكيف من نزلت درجته عن درجته، ونحن اليوم النبى ليس هو عندنا، وجبريل لا ينزل علينا فليس لبعضنا من بعض إلا الظاهر، والدليل عليه لو أن يهودياً أو نصرانياً جاء وأسلم، حكم بإسلامه؛ ولم يكن لقائل أن يقول له أنت فى الباطن بخلاف ما أظهرت من الإسلام.

فإذا كان اليهودى والنصرانى الذى قد تحقق منه الكفر إذا أظهر الإسلام يحمل منه على الظاهر ويقبل منه، فمن لم يتحقق منه الإيمان فى عمره كله أولى وأحرى أن لا يكفر بالظن.

فإن قيل كل دين مكتوم دين ميشوم ، ولو أن ما يعتقدونه حق لأظهرتموه يقال لهم هذا يتعلق به من لا عقل له ولا علم.

فإن النبى ﷺ، لما كان فى دار الخيزران ومعه ذلك النفر القليل لا يقدرون أن يظهروا ولا يظهروا ما هم عليه من الإسلام، لا يدل ذلك أنهم على الباطل بل هم على الحق، بل يدل على ضعفهم وقلتهم، وقوة أهل الباطل وكثرتهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

غربة الإسلام

وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ**»[1] وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**لا تقوم الساعة إلا على أشرار أمتى**»[2] فاظهارهم لما هم عليه من التشبيه ولعنة المسلمين وتكفيرهم، لا يدل أنهم على الحق، كما أن كثرة الروافض وإظهارهم لما هم عليه، وسب أصحاب رسول الله ﷺ فى بلاد الشام وغيرها، وسكوت أهل السنة عنهم لا يدل أنهم على الحق، وأن أهل السنة على الباطل، بل يدل على ذلك جهل اقتراب الساعة.

وتصديق النبى ﷺ فيما أخبر به من قوله ﷺ «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ**»، وقوله: «**لا تقوم الساعة إلا على أشرار أمتى**»، ومن شرهم لعنهم لأهل الحق وغيبتهم لهم، وتقبيح اسمهم عن العام، وتلقيبهم لهم بالأشعرية.

وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ أن رجلاً لعن، فقال له النبى ﷺ: «**لا تلعنها فإنها مأمورة، وإن من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه**»[3].

وروى فى الخبر أن رجلاً يعطى كتابه يوم القيامة فلا يرى فيه حسنة، فيقول: يا رب أين صلاتى وصيامى، فيقال: ذهب عملك كله باغتيابك للناس؛ قال الله عز وجل ﴿**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ**﴾[الحجرات: ١١].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٢) ذكره الإمام القرطبى وابن كثير وغيرهما فى (علامات القيامة) عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنهما.

(٣) الحديث الشريف رواه أبو داود ورواته ثقات عن ابن عباس رضى الله عنهما وأبى الدرداء رضي الله عنه وورد بروايات متعددة.

تفضيل الأشعرية

وأما تلقيبهم لهم بالأشعرية، فإن هذه التسمية لا توجب تكفيرهم، ولالعنهم، فإنه اسم قبيلة من قبائل العرب ، كقيس وفزارة وسليم؛ وقد روى فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال:« **الأزد والأشعريون هم منى وانا منهم،طيبة أفواههم، ولا يغلون ولا يجنون**»[1] .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**يقدم عليكم اقوام هم أرق منكم قلوباً**»[2]، فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعرى، فلما قربوا من المدينة كانوا يقولون : غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه.

وروى أن النبى ﷺ لما نزل عليه قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[المائدة:٥٤] ، فقال بقضية المشوق فى ظهر أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قومك يا أبا موسى أهل اليمن، ومعلوم بأدلة العقول أنه لم يظهر أحد من أولاد أبى موسى الأشعرى إلا رد على جميع المبتدعة من المعتزلة والرافضة والمشبهة، وأبطل شبههم وما هم عليه غير الإمام أبى الحسن الأشعرى. . فأنبأ لنبى ﷺ به فى الغيب كما أنبأ عن الإمام الشافعى رضي الله عنه بقوله : « **لا تسبوا قريشاً فإن الله عز وجل يظهر فيهم رجلاً يملأ الأرض علماً**»[3]، وروى «**فإن عالمها يملأ الأرض علماً**».

---

(١)، (٢) لم تذكر كتب التراجم لحياة الصحابة رضى الله عنهم مثل هذه الأحاديث ولعل فى بعضها ضعفاً، وتشير كتب التراجم أن الرسول الكريم ﷺ اكرم قوم أبى موسى الأشعرى حين قدموا عليه ﷺ فى اليوم الذى أقبل فيه جعفر وأصحابه من الحبشة وقد أحسن إليهم رسول الله ﷺ لأجل هذا ؛ تيمناً بالمناسبة التى جاءوا فيها.

(٣) هذا الحديث الشريف ورد بعدة روايات تشير فى مجموعها إلى النهى عن سب قريش، ونص الحديث الذى معنا أخرجه الإمام أحمد عن محمد بن إبراهيم التيمى عن قتادة عن النعمان الظفرى بلفظ مشابه.

فضل الإمام الشافعي رحمه الله

واتفق العلماء كلهم على أنه الإمام الشافعى رضي الله عنه لأنه لم يكن فى الأئمة قرشىٌ غير الشافعى رضي الله عنه .

فأنبأنا عن الغيب كما أنبأنا عن الإمام أبى الحسن الأشعرى رضي الله عنه فمن كان فى الفروع على مذهب الشافعى، وفى الأصول على اعتقاد الأشعرى فهو معلم الطريق وهو على الحق المبين، كما أنشد بعض الأصحاب:

إذا كنت فى علم الأصول موافقاً لعقدك قول الأشعرى المسدد

وعاملت مولاك الكريم مخالصاً بقول الإمام الشافعى المؤيد

وأتقنت حزب ابن العلاء مجرداً ولم تعد فى الإعراب رأى المبرد

فأنت على الحق اليقين موافق شريعة خير المرسلين محمد

فأما قول الجهلة نحن شافعية الفروع حنبلية الأصول فلم يعتد به ، لأن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه لم يصنف كتاباً فى الأصول، ولم ينقل عنه فى ذلك شيء أكثر من صبره على الضرب والحبس حتى دعوه المعتزلة إلى المخالفة بخلق القرآن، فلم يوافق ودعا إلى المناظرة فلم يناظر.

والاقتداء بمن صنف فى ذلك وتكلم فيه وقمع المبتدعة بالأدلة القاطعة والحجج الباهرة أولى وأحرى، وإذا كان النبى ﷺ مع جلالة قدره وعلو منزلته ، وإظهاره المعجزات والدلائل والآيات لم يخل من عدوٍ منافق وحاسد فاسق ينسب إليه ما ليس هو عليه وأصحابه المقطوع لهم بالجنة.

فكذلك فيمن نزلت درجتهم أولى وأحرى أن لا يسلم من ذلك، ينبغى للعاقل المكلف إذا سمع عن هذه الطائفة ، أعنى الأشعرية، ما ينفر قلبه عنه أن لا يبادر بالتصديق لذلك، فليس بصديق من يصدقه أولى من تصديقهم فى إنكارهم فيما ينسب إليهم من خلق القرآن وغيره.

ولأن المسلم لا يجوز له أن يكفر المسلم بالتقليد من غير نص فى حالة ولايثبت فى أمره، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات:٦] بقراءة من قرأ أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

فمن كان مقصوده معرفة أهل الحق، عليه الرجوع عن تكفرهم ولعنهم فليتبين ما أشرت إليه ، يصل إلى مقصوده.

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والله الموفق وعليه التكلان وبه المستعان

محتويات الكتاب



مطـــابـع آمـــــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

رقـم الايـداع :
٢٠٠٣ / ١٤٣٣٣
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 276 - 3